خواطر .. فى معية

خاتم الأنبياء والمرسلين

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

بقلم الأستاذ الدكتور

زغلول راغب محمد النجار

أستاذ علوم الأرض وزميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨
www.nahdetmisr.com

اسم الكتاب: خواطر في معية خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ
المؤلف: د. زغلول النجار
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم
تاريخ النشر: يناير ٢٠٠٤م
رقم الإيداع: 2003 / 20699
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2545-5

الإدارة العامة للنشر 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت 3466434(02)-3472864(02) فاكس 3462576(02) ص ب 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر Publishing@nahdetmisr.com

المطابع 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص ب 96 الفجالة - القاهرة
ت 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء الرقم المجاني 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية 408 طريق الحرية (رشدي)
ت 5230569 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة 47 شارع عبد السلام عارف
ت 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت كافة إصدارات شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع تجدونها على موقع الشركة بالعنوان التالي www.nahdetmisr.com الرقم المجاني 07775666

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨
www.nahdetmisr.com

بسم الله الرحمن الرحيم

يخاطب ربنا (تبارك وتعالى) فى محكم كتابه خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) أو يتحدث عنه فى العديد من الآيات القرآنية الكريمة التى فيها قوله (سبحانه وتعالى):

(١) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾. (البقرة ١١٩)

(٢) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .... ﴾.

(آل عمران ١٤٤)

(٣) ﴿.... وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. (النساء: ٧٩)

(٤) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. (الأعراف: ١٥٧، ١٥٨)

(٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

(الأنفال: ٦٤)

(٦) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. (التوبة: ٣٣)

(٧) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. (الأنبياء: ١٠٧)

(٨) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. (الفرقان: ٥٦)

(٩) ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

(الأحزاب: ٦)

(١٠) ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. (الأحزاب: ٤٠)

(١١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾. (الأحزاب: ٤٥، ٤٦)

(١٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. (سبأ: ٢٨)

(١٣) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

(فاطر: ٢٤)

(١٤) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾. (محمد: ٢)

(١٥) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(الفتح: ٢٨، ٢٩)

(١٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

(الحجرات. ٢ ـ ٥)

(١٧) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

(الصف: ٦)

(١٨) ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾.

(الجمعة: ٢)

(١٩) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(التحريم: ٨)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على كافة أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم خاتمهم أجمعين سيدنا محمدًا النبى الأمين الذى ختمت ببعثته النبوات، واكتملت برسالته كل الرسالات، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد فى سبيل الله حتى أتاه اليقين، فنسأل الله (تعالى) أن يجزيه خير ما جازى به نبيا عن أمته، ورسولا على حسن أداء رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وأن يبعثه المقام المحمود الذى وعده، إن ربى لا يخلف الميعاد (آمين).

أما بعد ، فإنه انطلاقا من فكرة التطور العضوى تخيل علماء الدراسات الإنسية (Anthropology) أن الإنسان بدأ حياته على هذه الأرض جاهلا، جاحدا، ملحدا، ثم أخذ يكتسب العلم بالتدريج من تأملاته فى الكون وظواهره، ومن مراقباته لغيره من المخلوقات، كما أخذ يكتسب التدين بالتدريج من خلال فزعه من الظواهر الطبيعية المختلفة التى أرهبته ودفعته إلى معرفة الله.

وخلافا لذلك يقرر الإسلام العظيم أن الإنسان بدأ عالما عابدا، يعرف ربه، ويخضع لأوامره بالعبادة والطاعة، ويعرف نفسه عبدا مستخلَفا فى الأرض لعمارتها وإقامة عدل الله فيها استعدادا للموت ثم البعث والنشور، ثم العرض الأكبر أمام خالقه للحساب

والجزاء، ثم الخلود فى حياة أبدية قادمة إما فى الجنة أبدا أو فى النار أبدا كما أخبر الصادق المصدوق (ﷺ).

كذلك يقرر الإسلام العظيم أن أصل المعارف الإنسانية كلها هو ذلك العلم الوهبى الذى علمه ربنا (تبارك وتعالى) لأبينا آدم (عليه السلام) والذى لخصه بقوله العزيز:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾. (البقرة: ٣١).

ومما لاشك فيه أن آدم (عليه السلام) علم زوجه وبنيه وجميع من عايش من ذريته هذا الدين العظيم .

ومن رحمة الله (تعالى) بعباده أنه لم يكل الناس إلى هذا العلم المعرض للضياع والنسيان، فغرس فى ذات الجبلة الإنسانية عقيدة الإيمان بالله وتوحيده، والشهادة له (سبحانه وتعالى) بالربوبية المطلقة فوق جميع خلقه، وفى ذلك يقول (عز من قائل) :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. (الأعراف: ١٧٢)

كذلك أرسل ربنا (تبارك وتعالى) سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين ويخبرنا الصادق المصدوق بأن عدد هؤلاء الأنبياء قد بلغ المائة والعشرين ألفا، اصطفاهم الله (تعالى) من خيرة خلقه، واختار من هؤلاء المصطفين الأخيار ثلاثمائة وبضعة عشر رسولا، اصطفاهم بعلمه وحكمته وقدرته وهو (سبحانه) القائل:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. (الأنعام: ١٢٤)

ثم اصطفى ربنا (جلت قدرته) من بين رسله إمامهم أجمعين، سيد الأولين والآخرين، وأحب الخلق إلى رب العالمين سيدنا محمد بن عبد الله الذى وصف لنا شرف اصطفاء الله (تعالى) له بقوله: «**إن الله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل (عليه الصلاة والسلام) واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم**». (صحيح مسلم)

وجميع هؤلاء الأنبياء والمرسلين قد أرسلوا بالإسلام العظيم، وبالحنيفية السمحة، وبكلمة التوحيد الخالص لله، ويذكر لنا القرآن الكريم نفرًا منهم بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. (الأعراف: ٥٩)

وقوله (عز من قائل):

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾. (الأعراف:٦٥)

وقوله (عز وجل):

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾. (الأعراف: ٧٣)

وقوله (سبحانه وتعالى):

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُه﴾

(الأعراف: ٨٥)

وتكرر نفس النداء فى سورة هود ثلاث مرات، وفى العديد غيرها من سور القرآن الكريم ، وجاء عاما لجميع المرسلين فى سورة النحل بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل: ٣٦).

وعلى الرغم من ذلك كله فقد تعرضت البشرية لموجات من الهداية والضلال، والاستقامة على منهج الله، والانحراف الشديد عنه، وقد اجتالت الشياطين بنى البشر بعد رسالتى كل من موسى وعيسى (عليهما السلام) كما اجتالتهم من قبل فأضلتهم وأضلت بهم، وأشقتهم وأشقت بهم، ويصف القرآن الكريم جانبا من هذا الضلال البشرى بعد رسولين من أولى العزم من الرسل فيقول ربنا (تبارك وتعالى) فيه:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي

إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

(المائدة: ٧٣ - ٧٩)

وكان لابد من ختم هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء والمرسلين بختام كريم، فكان هذا النبى الخاتم والرسول الخاتم (ﷺ)، وبما أن رسالته هى الرسالة الخاتمة فقد جاءت للخلق كافة على اختلاف أعراقهم وألوانهم ولغاتهم، وتعهد ربنا (تبارك وتعالى) بحفظها فحفظت بنفس لغة وحيها (اللغة العربية)، وحفظت حفظا كاملا : كلمة كلمة وحرفا حرفا على مدى أربعة عشر قرنا أو يزيد، وإلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها.

كذلك حفظت أقوال وأفعال وتقريرات هذا الرسول الخاتم (ﷺ)، وأصبح هذان المصدران من مصادر الهداية الربانية هما طوق النجاة الوحيد لكل إنسان فى هذا الوجود... سواء فى حياته، أو فى غمرات الموت عند وفاته، أو فى وحدته ووحشة قبره، أو عندما يحاسب فى تلك الوحشة والظلمة، وعند فجأة البعث وهوله، ومشقة الحساب ورهبته، وفضيحة الميزان ودقته، وأخطار الصراط وحِدَّته، وعند الوقوف على النار، ولذلك قال ربنا (تبارك وتعالى):

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ

اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾. (آل عمران: ١٨ ـ ٢٢)

ويؤكد ربنا (تبارك وتعالى) على نفس المعنى فى نفس السورة الكريمة بقوله (عز من قائل):

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨١ – ٨٥)

ويقول ربنا (تبارك اسمه):

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ

قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ
أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
فَاسِقُونَ (٨١) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ
بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ
إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا
آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ
بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾. (المائدة: ٧٧ ـ ٨٨).

ولذلك أيضا قال المصطفى (ﷺ): «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله، وسنتى**[1]».

فالذى يشهد للنبى الخاتم والرسول الخاتم (ﷺ) بالنبوة وبالرسالة، ويعلم أن الله (تعالى) قد اصطفاه من بين جميع خلقه الذين عاشوا من قبله، والذين عايشوه فى زمانه، والذين جاءوا من بعده إلى قيام الساعة، يعلم أن الله (تعالى) بالإضافة إلى هذا الاصطفاء قد تعهد خاتم أنبيائه ورسله من قبل أن يولد بسلسلة من الابتلاءات من أجل تهيئته للرسالة العظيمة التى سوف يقوم بها، وإعداده لتحمل تبعاتها...!! .

والذى يعلم ذلك لابد له من الحرص الشديد على مدارسة السيرة العطرة لهذا النبى الخاتم والرسول الخاتم (ﷺ) حتى يرى فيه (ﷺ) صورة من الكمال البشرى فيحتذى به، ويرى فيه من النبل الإنسانى فى القول والفعل والإقرار والنهى، وكافة أنماط السلوك والمعاملات ما يعينه على أن يتخذ من هذا المثل الأعلى للأنبياء قدوة ومثالا يرقى المرء بتقليده إلى مقامات التكريم.

ثم بالنظر إلى الرعاية الإلهية التى تعهدت تلك النطف الطاهرة من صلب كل من أبينا آدم (عليه السلام)، وأمنا حواء (عليها رضوان الله) إلى أصلاب كل من عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب حتى يخرج الكمال البشرى فى أتم صورة له نجد فى ذلك مدعاة لكل مسلم أن يتخير لنطفه، وأن يكون معيار الاختيار هو الدين قبل كل شىء.

ثم تأمل الحكمة الإلهية فى بعث هذا الرسول الخاتم (ﷺ) فى مكة المكرمة أشرف بقاع الأرض وأطهرها، وأحبها إلى الله

---

(١) رواه البيهقى فى السنن الكبرى والدار قطنى فى سننه .

(تعالى)، وأرض الكعبة المشرفة، أول بيت وُضِع للناس، والذى جعله الله (تعالى) مهبط آدم (عليه السلام) ومحج ومعتمر جميع أنبياء الله ورسله، ومثوى الكثيرين منهم، وقبلة للموحدين عبر التاريخ، والأرض التى حرمها الله (تعالى) يوم خلق السماوات والأرض، وجعلها محرمة إلى يوم الدين وغير ذلك من الفضائل، نرى أن تأمل ذلك يؤكد وحدة رسالة السماء بالتقاء أول النبيين بخاتمهم عند أول بيت وضع للناس.

كذلك فإن تأمل سيرته العطرة (ﷺ) يؤكد مقولته الشريفة: «**والله لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١).

فقد لاقى (ﷺ) من صنوف الابتلاء ما لاقى وهو أحب خلق الله إلى الله، فقد توفى أبوه وهو لا يزال جنينا فى بطن أمه التى فقدت زوجها فى الغربة بعد زواج لم يدم إلا لشهور قليلة.

وبعد ولادته زهدت فيه المرضعات ليتمه، وهو سليل الحسب والنسب والشرف، ثم تغرب وهو رضيع إلى سن الخامسة فى مضارب بنى سعد، وعندما عاد إلى أمه صحبته لزيارة قبر أبيه الذى شاء الله (تعالى) له أن يموت ويدفن بالمدينة، وفى طريق العودة توفيت والدته وهو دون السادسة، وعاد وحيدا إلى مكة ليعيش فى كنف جده ، ثم فى كنف عمه بعد أن توفى الجد وهو فى الثامنة من عمره، ورعى الغنم لأهل مكة على قراريط حتى الثانية عشرة من العمر، ثم سافر مع عمه فى تجارة إلى بلاد الشام وهو دون الثالثة عشرة، وفى تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد وهو دون الخامسة والعشرين، وعرف العزلة عن قومه،

(١) رواه الترمذى فى سننه .

والعبادة لخالقه من قبل أن يأتيه الوحى، فلم يقترب من صنم أبدا، ولم يقترف سلوكا يعاب أبدا، ولا تلفظ بكلمة نابية أبدا ، فقد حفظه الله (تعالى) فى طفولته وشبابه من سلبيات تلك الأعمار، ومن شرك المشركين ، وكفر الكافرين، ولم يُعرف عنه إلا كل خير حتى لُقِّب من أهل مكة بالصادق الأمين من قبل أنٍ يُبعث ، وعُرف برجاحة العقل وصواب الفكر بين قومه حتى حكموه فيما شجر بينهم وهو لا يزال صبيًّا يافعًا ، وكان أجود الناس فكان أجود بالخير من الريح المرسلة ، كما كان أرفق الناس، وأحلم الناس، وبعد بعثته الشريفة كان (ﷺ) أتقى الخلق لله ، وأكثرهم وَصْلاً به (سبحانه وتعالى)، وكان أزهد الناس فى الدنيا، ما سُئِل شيئًا قط فقال : لا . وما عاب طعاما قط قُدِّم إليه . وكان دائما يقول: «**إن من خياركم أحسنكم أخلاقا**» ، ويقول: «**إنما بُعثْتُ لأتمم مكارم الأخلاق**»، وكان جم التواضع يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانا راسخا عميقا ، كما كان يؤمن بأخوة الأنبياء وكان يقول: «**إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**[1]».

وقد عاش رسول الله (ﷺ) ثلاثة وستين عاما، منها أربعون قبل البعثة الشريفة، قضاها فى العبادة الفطرية والتحنث لله، وثلاثة وعشرون عاما بعد البعثة قضاها فى الدعوة إلى دين الله وفى العمل الدءُوب لإقامة دولة الإسلام على الأرض ، وفى الجهاد الصادق فى

(١) رواه البخارى فى صحيحه وأحمد فى مسنده والترمذى فى السنن.

سبيل الله، وتحمل فى سبيل ذلك الهجرة من بلده مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وخاض قرابة الثلاثين معركة والستين سرية وبعثة، وواجه خلالها من الحروب الفعلية والنفسية، والحصار الاقتصادى والاجتماعى ما واجه، وما تراوح بين محاولات القتل والسجن والتشريد والمطاردة، إلى الاتهام بالسحر والكهانة والشعر، والشعوذة، إلى رمى بيته بفرية الإفك، إلى تعذيب أصحابه حتى الموت، وخذلان أقرب الناس إليه من أهله وقبيلته له، وتخاذلهم عنه، وغدر الكفار والمشركين برسله بعد إعطائهم الأمان كما حدث فى كل من سريتى الرجيع وبئر معونة، إلى خيانات اليهود وتآمرهم عليه، وتربصهم به، ونقض كل عهودهم معه، إلى نفاق المنافقين، ومغالاة كل من الكفار والمشركين وتعاونهم عليه (ﷺ) ، وكل ذلك لم يفت فى عضده، ولم يلن من عزمه، ولم يضعف من إصراره على نصرة دين الله، بل على النقيض من ذلك زاده تصميما على الحق الذى جاء به، وإصرارا على الدفاع عنه والدعوة إليه حتى فتح الله (تعالى) عليه مكة المكرمة وأدان الجزيرة العربية لإمرته، وفاضت روحه الشريفة الزكية الطاهرة وهو يقول: «... **مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لى وارحمنى، وألحقنى بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى.. اللهم الرفيق الأعلى.. اللهم الرفيق الأعلى...**» .

ولعل فى هذه الابتلاءات لأشرف الخلق أجمعين ما يهوّن مصائب الدنيا على المسلمين، ويرضيهم بقضاء الله وقدره، وهم مقتنعون كل الاقتناع أن فيه الخير كل الخير حتى ولو بدا فى غير الصالح مباشرة، وذلك بعد بذل جهد الطاقة .

ومن الدروس المستفادة من هذه السيرة العطرة أنه لا يجوز لأرملة مات عنها زوجها بعد شهور قليلة من الزواج أن تقنط من رحمة الله، ولا يجوز ليتيم أن يتخيل أنه قد وصل إلى حافة الهلاك بفقد أحد والديه أو كليهما، ولا يصح لإنسان أن يحتقر عملا شريفا يعفه عن الحاجة إلى الناس مهما تواضع ذلك العمل، ولا يجوز لمسلم أن يبرر الانجراف إلى مزالق الفساد لشيوعه من حوله بل لابد من مفاصلته والعزلة عنه، والتميز عليه.

ولا يصح لمسلم أن يكون فاحشا ولا متفحشا ولو شاع الفحش فى محيطه، ولا أن يكون إمَّعة إذا أحسن الناس أحسن، وإذا أساءوا أساء، ولا يجوز له أن يعيش هملا لا يترك بصمة على مجريات الأحداث مهما تكالب عليه أهل الباطل، ولا أن يتخلى عن الدفاع عن دينه وعقيدته ومقدساته مهما وجِهَ فى ذلك بتحديات، وقُوبل بمظالم واضطهادات، فالحق لابد وأن ينتصر مهما طال الزمن وتطاول أهل الباطل، فهذه هى سنة الله فى خلقه،

﴿... وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا﴾. (الأحزاب.٦٢)

هذه بعض الخواطر المستقاة من السيرة العطرة لخاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ)، وبعض الدروس المستفادة من استعراض حياته الشريفة، وما مر بها من أحداث جسام، أرادها ربنا (تبارك وتعالى) أن تبقى على مر التاريخ نورا على درب الحياة يهتدى به كل مسلم ومسلمة، ودروسا وعبرا يتعلم المسلمون منها حقيقة رسالة كل واحد منهم فى هذه الحياة: عبادا لله، يعبدونه (تعالى) بما أمر فى إخلاص وتجرد كاملين، وينزهونه عن كل وصف لا

يليق بجلاله، من مثل دعوى الشريك أو الشبيه أو المنازع أو الصاحبة، أو الولد، وكلها من صفات المخلوقين، والله (تعالى) منزه تنزيها كاملا عن جميع صفات خلقه..!!.

ويتعلم المسلمون من هذه السيرة العطرة أيضا معنى الاستخلاف فى الأرض، والمجاهدة من أجل إعمارها، وإقامة عدل الله فيها، والدفاع عن حرمات الله عليها، فى قناعة كاملة بمعنى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» أى لا سلطان فى هذا الوجود لغير الله، والذى يؤمن بذلك لا يمكن له أن يحنى رأسه لغير الله الذى يملك الأجل والرزق، والعافية، والستر، والتوفيق والسعادة، وكل أمر من أمور هذا الكون، والإنسان الذى يمتلئ قلبه بحقيقة أنه لا سلطان فى هذا الوجود لغير الله يعيش على هذه الأرض معززا مكرما، يحترم ذاته فى تواضع، ويعتز بإسلامه وبآدميته وبصلته بربه فى غير غرور، ويؤمن بوحدانية الله وحدانية مطلقة فوق جميع خلقه، وبالأخوة الإنسانية التى ينتهى نسبها إلى آدم وحواء (عليهما السلام)، وبالأخوة بين الأنبياء، وبوحدة رسالة السماء التى أكملها ربنا (تبارك وتعالى) فى رسالته الخاتمة التى بعث بها النبى الخاتم والرسول الخاتم (ﷺ)، وتعهد بحفظها فى نفس لغة وحيها (اللغة العربية) فحفظت حفظًا كاملاً على مدى أكثر من أربعة عشر قرنًا، وإلى يوم الدين.

والذى يؤمن بأن «محمدا رسول الله» يحب هذا المثل الأعلى للأنبياء بل للإنسانية جمعاء، ومن حبه له يحاول اقتفاء أثره، والتأسى به وبخلقه، فيحقق سعادة الدنيا والآخرة وهو الهدف من الوجود فى هذه الحياة..!

ومن أجل ذلك استعرضنا طرفا من السيرة العطرة لسيد الأنبياء والمرسلين (ﷺ) في مواقف محددة من تلك السيرة المباركة، لعل القارئ يجد فيها ما يُعرِّفه بجانب من جوانب حياة أفضل الخلق أجمعين، فيتخذ من ذلك قدوة له في حياته، ونورًا يستنير به في الدروب المظلمة لحياة الفتن التي نعيشها في هذه الأيام الحالكة الظلام، المليئة بالمظالم والانحرافات عن منهج الله .... !! والعالم الإسلامي محاط بسلسلة من المؤامرات الشيطانية الرهيبة التي أغرقت كثيرًا من أراضيه في بحارٍ من الدم والأشلاء والخراب والدمار، حيث تُنتهك الحرمات، وتُداس المقدسات، ويقف المسلمون في ذهول، ويتطلع الشباب إلى القدوة ولن يجدوها في أفضل من سيرة إمام الأنبياء والمرسلين (ﷺ) فإن أصبت في ذلك فبتوفيق من الله، وإن قصرت فمن نفسي، ولعل الله (تعالى) أن يغفر لي تقصيري وأن يجعل من هذه السطور القليلة سببا في شفاعة المصطفى (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) لي ولوالدي ولمشايخي، ولإخوتي وأخواتي ولزوجتي وإخواني من المسلمين والمسلمات ولكل من له فضل عَلَيَّ. وما ذلك على الله بعزيز وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

الباب الأول

حالة العالم قبل بعثة
خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ)

جاءت بعثة المصطفى (ﷺ) رحمة للعالمين؛ لأن الأرض كانت قد فقدت الصلة بالرسالات السماوية السابقة على بعثته الشريفة والتى كانت قد ضاعت أو تعرضت لقدر من التحريف الذى أخرجها عن إطارها الربانى، وجعلها عاجزة عن هداية البشرية، فملئت الأرض جورًا وظلمًا وفسادًا.

وليس أدل على ذلك من شيوع الكفر والشرك بين غالبية أهل الأرض، وانتشار الوثنيات على اختلاف أشكالها، والمجوسيات على تعدد صورها، وهيمنة الخرافات والأساطير والهواجس الظنية على مختلف المجتمعات البشرية حتى فسدت العقائد، وحُرِّفت العبادات، وساءت الأخلاق، وتدنت المعاملات.

والجزيرة العربية - أرض الكعبة المشرفة، ومهبط آدم وحواء عليهما السلام، ومحج ومعتمر وملجأ كل أنبياء الله ورسله - لم تسلم من تلك الأدواء، فبعد أن ساد التوحيد الخالص الذى دعا إليه كل من إبراهيم وولده إسماعيل - على نبينا وعليهما من الله السلام - لعشرة قرون كاملة أصبحت الجزيرة العربية ممزقة بين أشكال لاتعد ولا تحصى من الوثنية، فعُبدت الأصنام والأوثان والأنصاب، وعُبدت النار، والأشجار، والكهوف، والآبار، والحيوانات، والشمس والقمر وغيرهما من النجوم والكواكب والتوابع. وكان لكل قبيلة من القبائل العربية أكثر من صنم حتى بلغ عدد الأصنام المعروفة إلى أكثر من ثلاثمائة وستين صنمًا، وكان عُبَّادها - من خبلهم - يعتقدون أن الله (تعالى) قد فوَّضها فى بعض التصرفات على الأرض من مثل إقصاء الوباء، وتحقيق الرجاء، وطرد الشرور، وإبعاد المجاعات، وشفاء الأمراض، ووهب الذريات، وإنزال المطر،

وإنبات الأرض، وتوسيع الرزق، وملء ضروع الأنعام بالحليب، وغير ذلك من حاجات الناس.

كذلك كان لأهل كل دار صنم فى دارهم يعبدونه، بل كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا وجعل ثلاثة أثافٍ لقدره، وإذا ارتحل تركه، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك (الكلبى فى كتابه المعنون باسم : «الأصنام» ص ٢٢).

ويعتقد أن عبادة الأصنام قد بدأت بوسوسة من الشيطان لتعظيم بعض الموتى من الصالحين، ويستدل على ذلك بحديث لابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال فيه : «**صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب من بعد، وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت**».

وكانت هذه أول وثنية فى تاريخ البشرية، لأن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قد أشار فى حديثه هذا إلى أنه «**كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة الحق**[1]».

وانتقلت عبادة الأوثان إلى جزيرة العرب بتأثير من وثنيات الأمم المجاورة من البابليين، والفرس، والرومان، واليونانيين، ويعتقد بأنها جاءت من تحريف للديانات السماوية القديمة ولذلك ظلت مختلطة بشىء من الإيمان بالله (تعالى)، فلم يكن العربى يعبد الوثن معتقدًا أنه خالقه وخالق الكون من حوله، ولكن يعبده ليقربه إلى الله زلفى.

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك .

ولذلك كان تارة يستقسم عنده، وتارة أخرى يسبه ويلعنه، وثالثة يأكله وقت المجاعة إذا كان قد صنعه مما يؤكل كالعجوة مثلا.

وبجوار عبادة الأوثان انتشرت المجوسية التى كان الفرس قد اشتهروا بها، والتى كانت تعنى إشراك مظاهر الطبيعة فى عبادة الله، فعبدوا النار وأشعلوها فى معابدهم، وكان لديهم من الانحرافات القديمة: الزرادشتية، والمانوية، والمزدكية، والصابئة، والدهرية.

والمذهب الأول ابتدعه «زرادشت» المولود فى سنة ٦٢٨ ق.م. بشمال إيران وقد هلك فى سنة ٥٥١ ق.م. ويبدو أن مذهبه تحريفٌ لدين سماوى قديم كان يدعو للتوحيد الخالص لله تعالى.

وأتبعت الزرادشتية بالمانوية التى أسسها «مانى» فى العراق سنة ٢١٦م والذى كان قد نشأ فى أسرة نصرانية على الرغم من أن غالبية قومه كانوا يؤمنون «بالزرادشتية» فكانت دعوته خليطًا بين النصرانية والزرادشتية، وادعى أنه هو النبى الذى بشر بمقدمه عيسى ـ عليه السلام ـ، ومات مقتولا بأمر من الملك «بهرام»، ورغم قتله انتشرت دعوته حتى وصلت إلى الصين شرقًا وإلى أسبانيا غربًا، وبلغت أوجها فى القرن الرابع الميلادى ثم اندثرت بحدود سنة ٦٠٠م.

وأتبعت المانوية المزدكية التى ظهرت فى فارس فى حدود سنة ٤٨٧م كدعوة إباحية أحلت النساء والأموال، فاغتنم سفلة القوم ذلك والتفوا حول «مزدك» وأتباعه، وشايعوهم حتى عم الفساد. وبلغ من وقاحة «مزدك» أن أقنع الملك الفارسى «قباذ» ببذل زوجته لمن يشتهيها من الرجال ليعلم الناس صدق إيمانه بالمزدكية ولكن ولى عهده «كسرى» دخل على أبيه باكيًا

متضرعًا يتوسل إليه ألا يذله ويبتذل أمه فقبل شفاعته، ثم أمر ولي العهد بقتل مزدك فقتله أتباع الأمير وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد حتى تم القضاء على مذهبه الفاسد.

أما «الصابئة» فكانوا قد انحرفوا عن دين كل من نوح وإدريس - على نبينا وعليهما من الله السلام - فعبدوا الكواكب، ودانت بهذا المعتقد الفاسد أعداد من القبائل العربية، فكانت «كنانة» تعبد القمر، و«حمير» تعبد الشمس، وكل من «لخم» و«جذام» تعبدان المشترى، و«طيئ» تعبد سهيلا، و«قيس» تعبد الشعرى، و«أسد» تعبد عطارد، وغير هؤلاء كان يعظم «زحل» أو «الجوزاء» أو «الجبار» أو «الثريا».

أما الدهريون فقد كانوا قلة من الكفار الذين لم يؤمنوا بالله ولم يتبعوا دينا معينا، بل قامت عقيدتهم على أنه لا عقل ولا روح ولا دين ولا إله، وأنه لا يجيء بالخلق إلا الدهر ولا يهلكهم إلا الدهر.

ولم يجد فى مقاومة ذلك المد الوثنى وجود بعض الجيوب من اليهود والنصارى فى أجزاء من الجزيرة العربية بعد أن لجأ اليهود إلى كل من شمال الحجاز وشمال اليمن خاصة فى القرنين الميلاديين الأول والثانى نتيجة لاضطهادهم من أجل قيامهم بتمرد ضد حكم الرومان لفلسطين فى سنة ٦٦م فأرسل الإمبراطور الرومانى «نيرون» جيشًا من الشمال عن طريق سوريا بقيادة «فسباسيان» فى ربيع سنة ٦٧م لإخماد هذا التمرد، وانضم إلى هذا الجيش الرومانى جيش آخر قادم من الجنوب عن طريق الإسكندرية بقيادة «تيتوس» (تايتوس) ابن «فسباسيان» فقضوا على تمرد اليهود ودمروهم، ودمروا هيكل سليمان فى بيت المقدس سنة ٧٠م، وتلى ذلك تدمير قيصر الروم «هدريان» للقدس مرة

ثانية سنة ١٣٢م وتشريد من بقى فيها من اليهود فتشتت اليهود فى بقاع الأرض لاستمرار مطاردة الرومان لهم، واضطهادهم إياهم فى كل مكان وجدوهم فيه، فلم يجد اليهود أمامهم من ملجأ يلجئون إليه، ويأمنون فيه إلا جزيرة العرب، فانتشروا فى كل من اليمن وشمال الحجاز، حيث أقاموا تجمعات لهم فى كل من يثرب، وخيبر، وتيماء، وفدك، ووادى القرى.

وكان من يهود يثرب قبائل بنى قريظة وبنى قينقاع، وبنى النضير. وكان اليهود قد فقدوا التوراة أثناء السبى البابلى، فحرفوا دينهم، وابتدعوا فيه، وتاجروا به، وألَّهوا وعزيرا وأشركوه مع الله، وادعوا بالباطل أن عُزيرًا ابن الله . وانغمسوا إلى آذانهم فى ماديات الحياة الدنيا وملذاتها فضلوا وأضلوا. هذا، فضلاً عن أنهم ـ انطلاقا من عقيدتهم الفاسدة ـ اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار، وأبناءه، وأحباءه، واعتبروا غيرهم من الأمم حيوانات خلقت فى هيئة آدمية حتى يكونوا فى خدمة اليهود، ومن هنا فقد ضنوا على هؤلاء «الأمميين» أو «الأغيار» بما لديهم من بقايا علم لأنهم كما يعتقد اليهود لا يستحقون أن تكون لهم صلة بالدين.

ونظرًا لانحراف اليهود عن منهج الله فقد بعث الله (تعالى) إليهم عددًا كبيرًا من الأنبياء فقاتلوهم وقتلوهم، ثم بعث إليهم المسيح عيسى بن مريم ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ يدعوهم إلى عبادة الله (تعالى) وحده بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد، ولكن اليهود أيضا رفضوه وحاربوه وحاولوا إغراء الرومان به لصلبه، وبعد مقاومة عنيفة من الرومان الوثنيين انتشرت رسالة المسيح ـ على نبينا

وعليه من الله السلام -، وزاد عدد أتباعه فكاد لهم اليهود ودسوا «بولس» عليهم وهو يهودى كان يسمى باسم (شاؤول الطرطوسى أو الطرسوسى) وهو لم يلتق بالمسيح - عليه السلام - ولم يستمع إليه أبدًا، ولكنه ابتدع أسطورة تأليه المسيح، وأسطورة بنوته لله (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)، ولكى يبرر ذلك ابتدع فكرة الخطيئة والكفارة، وفكرة التثليث ودعوى الصلب وغيرهــا من المعتقـدات التى دست على رسالة المسيح - على نبينا وعليه السلام - وكانت كل هذه الابتداعات فى الوثنيات القديمة التى سبق وأن اجتاحت العالم من قبل.

وفى ظل الحكم الرومانى الوثنى عانى أتباع المسيح الاضطهاد والنفى والتشريد حتى اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية فى القرن الرابع الميلادى إرضاءً لوالدته التى كانت قد سبقته إلى المسيحية ودانت بها. فأصبحت المسيحية بذاتها أداة للاضطهاد والقتل والتشريد .

وكانت المسيحية قد انقسمت إلى العديد من الملل والنحل التى منها :

(١) اليعاقبة (Jacobites or Jacobism) : وهم أتباع يعقوب البرادعى الذى كان راهبًا فى كنيسة القسطنطينية وادعى بالطبيعة المزدوجة للمسيح وانتشر فكره فى كل من مصر والنوبة والحبشة ، وشكل المذهب اليعقوبى أو الأرثوذكسى (Orthodoxism or Jacobism)

(٢) النساطرة (Nasturians) : وهم أتباع «نسطور» بطريرك القسطنطينية وانتشر فكره فى كل من العراق وفارس، وعرف مذهبهم باسم النسطورية (Nasturism)

(٣) والملكانيون أو الملكيونيون (Malakanians) : وهم أتباع ملكيون مؤسس مدرسة أنطاكية وقد انتشر فكره فى بلاد الشام والمغرب وصقلية وبلاد الأندلس، وهم أصل المذهب الكاثوليكى المعروف باسم (Catholicism=Royalism=Malakanism)

(٤) الموحـــدون (The Unitarians) : وهذه الفرقة تقول بوحدانية الله (تعالى) وبأن المسيح عيسى بن مريم هو عبده ورسوله، ولا يمكن له أن يكون غير ذلك، مع كثير من التخبط والخلط فى المفاهيم نظراً لضياع أصول الإنجيل، وتكدس الخرافات والأساطير وتعدد المداخلات البشرية.

(٥) باقى الفرق المسيحية التى يزيد عددها على ٧٢ فرقة يتشعب كل منها إلى عدد من المذاهب المتعارضة التى لاحصر لها، ومنها :

The Adventistism, Arianism, Biblicism, Congruism, Didascalianism, Evangilism, Gnosticism, Jonnesism, Macedonism, Maronism, Molonism, Mormonism, Relagianism, Presbytarianism, Protestantism, Quietism, Sophroniusism, Ariusism,etc.

والفرقة الأخيرة المعروفة باسم «الأريسيون» سميت بذلك نسبة إلى (Arius) القس الإسكندرى اليونانى الأصل الذى دعا إلى توحيد الله (سبحانه وتعالى)، وقاوم الادعاء الباطل بألوهية المسيح، وآمن به عبدًا لله ورسولاً مرسلاً منه، وقد أُدينت الأريسية فى كل من مؤتمر نيقيا سنة ٣٢٥ميلادية، ومؤتمر القسطنطينية فى سنة ٣٨١ ميلادية، وأعدم أريوس بسبب مقاومته لدعوى ألوهية المسيح وذلك بعد مؤتمر نيقيا بقليل وذلك فى سنة ٣٣٦م.

وانتشر المارونيون فى لبنان، واشتد التطاحن بين أتباع هذه الطوائف، التى اتهم بعضها بعضًا بالكفر والضلال، وحاول

بعضها القضاء على البعض الآخر عبر سلاسل من الحروب الطاحنة التى استمرت لعدة قرون متتالية وما زالت بقاياها مشتعلة فى كل من شمال أيرلندا والبلقان.

وانتشرت النصرانية بمذاهبها المختلفة فى عدد من الجيوب المتناثرة حول الجزيرة العربية من مثل كل من نجران، والحيرة، والأنبار، وتَدْمُر وأرض الغساسنة والمناذرة خاصة فى أيام الاضطهادات الدينية التى تعرض لها النصارى على عهد الوثنيين من القياصرة الرومان، أو من المتشيعين منهم لطائفة ضد الأخرى بعد دخول روما فى النصرانية بقبول إمبراطورها قسطنطين لهذا الدين، وعقده مؤتمر نيقيا فى سنة ٣٢٥م. وفى ظل هذا الاضطهاد لم يجد العديد من كهنة النصرانية ورهبانها ملجأً لهم إلا فى الجزيرة العربية ففروا بدينهم إليها حيث كان يصعب على الرومان اللحاق بهم فى تلك الصحارى الشاسعة.

ولم يكن فى وجود بقايا من هاتين الديانتين السماويتين فى بعض الجيوب العربية أى أثر فى مقاومة مد الوثنية بأشكالها المختلفة، والانحرافات العقدية الكثيرة التى سادت جزيرة العرب كما سادت غيرها من دول العالم، وذلك لأن كلا من اليهودية والنصرانية كان قد فقد الصلة بأصوله السماوية، وتعرض لقَدْرٍ من التزييف والتبديل والتحريف الذى أخرجه عن إطاره الربانى وجعله عاجزا عن هداية البشرية، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى اختلاط كل منهما بالوثنيات القديمة، وبالفلسفات والأساطير اليونانية والفارسية والهندية، وقد اتضح ذلك جليا فى العدد الهائل من المجامع التى عقدت لمناقشة جوهر النصرانية،

وطبيعة السيد المسيح ـ على نبينا وعليه من الله السلام ـ وللتقريب بين المسيحية وبين الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى وضعت للتوفيق بين العقيدة المسيحية والعقل.

ويضاف إلى ذلك أن الجيوب اليهودية والنصرانية فى الجزيرة العربية ـ بحكم وضعها كأقلية ـ اهتمت بتوظيف اللعبة السياسية «فَرِّق تَسُدْ»، مستعينة بالقوتين الكبيرتين فى ذلك الوقت: الإمبراطورية الفارسية فى الشرق، والإمبراطورية الرومانية فى الغرب وقد كانتا فى صراع من أجل الاستيلاء على جزيرة العرب، فارتمى اليهود فى أحضان الدولة الساسانية الفارسية (٢٢٦م ـ ٦٥١م) وظلوا صنائع لها فى قلب شبه الجزيرة العربية، وكانت السياسة الفارسية تقوم على تشجيع ملوك حمير من أجل اعتناق اليهودية ليكونوا سدًّا منيعًا أمام الزحف الصليبى الرومانى القادم من الحبشة، وأما الصليبيون فكانوا قد ارتموا فى أحضان الدولة الرومانية بعد أن كانوا قد فروا من جورها وظلمها، وبدأت هذه الإمبراطورية بعملية التنصير فى جنوب الجزيرة العربية تمهيدًا للاستيلاء عليها بعد أن جعلت من بلاد الحبشة المقابلة لأرض اليمن ولاية رومانية نصرانية، وبالفعل نجح الرومان فى إقامة جالية نصرانية فى نجران، كما نجح صنائعهم من الأحباش فى احتلال أجزاء من مملكة حمير، وأرسل النجاشى ولاته المسيحيين ليحكموا باسمه أرض اليمن، واشتدت وطأتهم على أهل البلاد، وعم أذاهم الناس حتى حاول أبرهة الأشرم هدم الكعبة المشرفة فى عام الفيل سنة ٥٧٠م فأذله الله ودمره ودمر جيشه تدميرًا.

وكان الصراع بين الجاليتين اليهودية والنصرانية فى الجزيرة العربية واجهة من واجهات الصراع بين الإمبراطوريتين

الفارسية والرومانية على أطراف تلك الجزيرة الشمالية والشرقية والغربية والجنوبية.

وإذا أضفنا إلى هذا الصراع الدامى على أطراف شبه الجزيرة العربية عددًا آخر من الصراعات الداخلية التى مزقت القبائل العربية وأضعفت من مواقفها أمام تحديات الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية - اتضح لنا جانب من جوانب البؤس الذى عاشه العرب قبل البعثة المحمدية المباركة، ومن أمثلة الحروب العربية : حرب «البسوس» وحرب «داحس والغبراء»، ويوم «كلاب» الأول والثانى، ويوم «أوارة» الأول والثانى، ويوم «ذى قار» وغيرها من الحروب التى أنهكت قوة العرب، وحالت دون تمكنهم من إقامة دولة موحدة لهم، ودفعت بقبائلها المتطاحنة إلى الاستنصار بأعدائها من الفرس أو الروم أو الأحباش ضد بعضها البعض، مما أضاع هيبة العرب، وحرمهم من الأمن والاستقرار، فضلاً عن إقامة أية نهضة علمية أو تقنية أو فكرية، فسادت شبه الجزيرة العربية الأمية ببعديها : أمية القراءة والكتابة وأمية العقيدة، وخيم عليها الجهل بأبعاده المختلفة إلا من فصاحة اللسان وحسن البيان، وبعض المعارف الساذجة كالتنجيم، والعرافة، والأنساب، والشعر، والقصص، وإن كان قد أقيم فى جنوب شبه الجزيرة بعض القصور الفارهة، والمعابد الفاخرة، والمدن المحصنة، والسدود المشيدة.

ومن الإنصاف أن نشير إلى أنه وسط هذا الركام من الوثنيات، والجهل، والانحراف، كانت هناك قلة من العرب الذين بفطرتهم السوية نبذوا الشرك واتجهوا إلى التوحيد الذى توارثوه عن ملة

إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام) وما بقى من تعاليمهما وعرف هؤلاء باسم «الحنفاء» أو «الأحناف» وكان منهم زيد بن عمرو بن نفيل العدوى من بنى عدى [ابن عم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه)]، وأمية بن أبى السلط، وقس بن ساعدة الإيادى، «المتوفى قبل الهجرة النبوية الشريفة بنحو ثلاث وعشرين سنة «أى قبل بعثة المصطفى (ﷺ) بعشر سنوات» وهو الذى قال فيه رسول الله (ﷺ) : «رحم الله قسا، إنى لأرجو أن يبعثه الله، أمة وحده»، وكان منهم أبو قيس صرمة بن أبى أس ـ وهو من بنى النجار أخوال النبى (ﷺ) ـ وكان قد فارق الأوثان، وهم بالنصرانية، ثم أمسك عنها، ثم دخل بيتا له، فاتخذه مسجدا، لا يدخل إليه طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب إبراهيم، فلما قدم رسول الله (ﷺ) المدينة أسلم وحسن إسلامه.

وكان منهم عامر بن الظرب العدوانى الذى كان من حكماء العرب وخطبائهم وآمن بالله وبالبعث، وكان منهم قيس بن عاصم التميمى، وعبد المطلب بن هاشم جد رسول الله (ﷺ) وقد نوه كل من ابن إسحاق وابن هشام فى استعراضهما للسيرة النبوية العطرة بهؤلاء الأحناف، وذكرا طرفا من تاريخ وأقوال ومواقف كل منهم.

وهذه القلة القليلة من حنفاء العرب الذين رفضوا عبادة الأوثان، ودانوا بالتوحيد الخالص لله (تعالى) استعلوا بأنفسهم على شرك كل من اليهود والنصارى الذين كانوا قد انحرفوا عن التوحيد إلى الشرك، على الرغم من بقاء بعض المعارف الصحيحة معهم، فأشرك اليهود عزيرا فى عبادة الله، كما أشرك

النصارى المسيح (عليه السلام) فى عبادته، وكان حنفاء العرب يعلنون تبعيتهم للتوحيد الخالص الذى دعا إليه كل من إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام)، وكانوا يؤمنون بالبعث وبالحساب، وبالجنة والنار، فاعتزلوا أقوامهم فى رفق ولين وموادعة، وحرموا على أنفسهم كثيرا من المفاسد الاجتماعية الشائعة، والعادات السيئة، والأخلاق الذميمة ؛ مثل شرب الخمر، ووأد البنات، والسلب والنهب والبغى. فهذا عامر بن الظرب العدوانى يقول فى إحدى خطبه: «**إنى ما رأيت شيئا قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ولا جائيا إلا ذاهبا، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء**» ثم قال: «**إنى أرى أمورا شتى وحتى**». فقيل له: وما حتى؟ قال: «**حتى يرجع الميت حيا، ويعود اللاشىء شيئا، ولذلك خلقت السماوات والأرض**».

ولكن هؤلاء الأحناف كانوا قلة قليلة، منغلقة على ذاتها، ومتناثرة، لا يكاد أن يدرك لها أثر فى مجتمعاتهم الوثنية أو أن يسمع لصوتها أى صدى...!!! وكان منهم ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وعبد الله بن جحش.

ويؤثر عن ابن نفيل أنه كان شديد الانتقاد لعبادة الأوثان، وشديد المعاداة لقومه على ذلك، وأنه امتنع فى الجاهلية عن أكل ما ذبح لغير الله (عز وجل) قائلا: «**يا معشر قريش: أرسل الله قطر السماء، وأنبت بقل الأرض، وخلق السائمة، ورعت فيه، وتذبحونها لغير الله؟!!!**». ويذكر عنه أنه كان يناجى ربه قائلا : «**يارب.. لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به.. ولكنى لاأعلم..!!**» وقد شاء الله (تعالى) له أن يموت قبل البعثة المحمدية المشرفة بخمس سنين.

هكذا كان حال الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول الخاتم والنبى الخاتم (ﷺ) ، ولم تكن أحوال بقية العالم أقل سوءا من ذلك إن لم تفقه بكثير فدول الفرس والهند والصين وغيرها من دول القارة الآسيوية كانت غارقة إلى آذانها فى أنماط متعددة من الوثنيات المختلفة، ولو أن هذه البلاد كانت قد تمكنت من تأسيس عدد من الحضارات المادية، واشتمل فكرها على قدر من المبادئ الاجتماعية والقواعد الأخلاقية التى قد تمثل بقايا لتعاليم سماوية سابقة كما هو الحال فى البوذية والهندوكية.

والإمبراطورية الرومانية كانت وريثة الحضارة الهيلينية بأساطيرها وخرافاتها ووثنياتها، وكان الهيلينيون قد ورثوا كلا من الحضارة الفرعونية القديمة وحضارة ما بين النهرين بوثنياتهما، ولذلك جاءت الحضارة الرومانية حضارة وثنية قائمة على الاعتقاد الخاطئ بتعدد الآلهة، وعبادة الأوثان، وعلى التوهم بوجود قوى خفية معينة فى أشياء هذا الكون الظاهرة والباطنة، وفى ظواهره المدمرة.

وظل الحال كذلك حتى سنة ٣٠٦م حين اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية الملك قسطنطين فاعتنق المسيحية سنة ٣١٢م بناء على أسطورة قوامها ظهور الصليب فى السماء وكلمات ترجمتها «إنك لن تغزو بعد ذلك أبدا» (By this sign thou shalt conquer)، وباعتناق قسطنطين الديانة المسيحية حوّل الإمبراطورية كلها إلى اعتناقها بالإكراه: عقيدة اختلطت فيها سيرة السيد المسيح - على نبينا وعليه من الله السلام - بكثير من الوثنيات القديمة، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى التشابه الكبير فى العقائد والعبادات بين كل من المسيحية

والوثنيات الآسيوية والفرعونية والهيلينية ، مثل: التعميد، والقرابين، وتناول الطعام المقدس من الخبز والنبيذ، ودق النواقيس، وبناء التماثيل، والاشتراك فى فلسفة أسطورية واحدة تقوم على فكرة غير منطقية تدعى بأن الإله يتعذب كما يتعذب الإنسان ليمحو خطيئة ارتكبها «آدم» أبو الإنسانية فى أول عهد له بالوجود، ثم يموت الإله كما يموت الإنسان، ولكنه لا يلبث أن يتغلب على هذا العذاب، وكذلك على الموت فيبعث من جديد ليتمتع بحياة السعادة فى دار الخلود الأبدية ، وتسمى هذه الفكرة الموضوعة باسم «عقيدة الخطيئة والكفارة والفداء» ويصفها كاتب غربى مثل الفيلسوف الأمريكى الشهير ول ديورانت [(Durant, will. (william James)] فى كتابه «قصة الحضارة» (The Story of Civilization, 1935 et seq) ما ترجمته: «**والراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسيا من بلاد فارس أو من بابل، فالتاريخ كله والحياة كلها قد صورتها الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية، ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ هو (متراس) ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين، وكما يبدو لكثير من اليهود أن حكم روما كان جزءًا من انتشار الشر القصير الأجل...**».

ومن وراء الإمبراطورية الرومانية كانت بقية دول العالم تحيا حياة همجية، بدائية، لا نعرف لها فكرا محددا، ولا فلسفة حياتية معينة، ولا عقيدة واضحة، ولا أثرا حضاريا يذكر، وذلك باستثناء مصر التى سبق لها أن كانت منبعا للفكر الفرعونى واليونانى الهيلينى، والرومانى الغربى والشرقى وقد تربى كل من الفكر

اليوناني والروماني على موائد الحضارة الفرعونية الوثنية المشركة، ثم اكتوت مصر الفرعونية بنيران الاحتلال الهيليني ثم الروماني من بعد ذلك، وكلاهما قد عاث في أرض مصر فسادا واستعبادا، ولم ينقذها من جور الرومان إلا جيش من جيوش خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ). ولا ينفي ذلك أن مصر ـ كغيرها من دول العالم ـ قد تمتعت بفترات من الإيمان بالله الخالق وحده (بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد) وبالهداية الربانية الصحيحة على يد رسول من رسل الله أو نبي من أنبيائه، وذلك انطلاقا من قول الحق (تبارك وتعالى) مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) بقوله العزيز:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤).

ونحن نؤمن بذلك وإن لم يدون التاريخ لنا أثرا لهذه السلسلة الطويلة من الأنبياء التي يحدد المصطفى (ﷺ) عددهم بأنه بلغ المائة والعشرين ألفا، وأن الله (تعالى) قد اختار منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولا (٣١٥ ـ ٣١٧) وذلك لأن التاريخ عادة ما تدونه أيدي المنتصرين من الظلمة المتجبرين في الأرض.

من هذا الاستعراض السريع تتضح لنا صورة العالم قبل بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ)، وقد كان في غالبيته الساحقة فاقدا لنور الرسالات السماوية، تائها في دياجير من الظلم والظلام، التي ظل يغوص فيها حتى فسدت العقائد، وضاعت العبادات، وانحطت الأخلاق، وتدنت المعاملات عند الغالبية العظمى من الناس فصار العالم أحوج ما يكون إلى الهداية الربانية، والرحمة الإلهية متمثلة في

وحى السماء الذى يحتاجه الإنسان فى القضايا التى لا يستطيع أن يضع لنفسه - بنفسه - فيها إجابات صحيحة من مثل قضايا العقيدة، والعبادة، والأخلاق والمعاملات التى تشكل صلب الدين، وهى تقع فى مجال الغيب المطلق الذى لا سبيل للإنسان فى الوصول إليه إلا عن طريق وحى السماء كقضايا العقيدة، أو فى حدود الأوامر الإلهية المطلقة كقضايا العبادة، أو هى ضوابط للسلوك كقضايا الأخلاق والمعاملات، والتاريخ يؤكد لنا عجز الإنسان عن إمكانية وضع ضوابط للسلوك من عنده، والمنطق يرفض إمكانية أن يضع الإنسان لنفسه أنماطا من العبادة ثم يتصور قبول الله (تعالى) لها ؛ لأن فى ذلك تأله على الله الذى لا شريك له فى ملكه، ولا منازع له فى سلطانه؛ ولأن العبادة بمفهومها اللغوى هى قمة الخضوع لله بالطاعة، ولا طاعة بغير أوامر إلهية خالصة لا يداخلها أدنى قدر من التصورات البشرية.

من هنا تتضح لكل ذى بصيرة حاجة العالم إلى الرسالة السماوية الخاتمة التى تمثلت فى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) الذى وصفه ربه (تبارك وتعالى) بقوله - عز من قائل -:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. (الأنبياء : ١٠٧)

وبقوله (سبحانه وتعالى) :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (الأحزاب : ٤٥ - ٤٨).

ولسنا نعنى بهذا الاستعراض إلغاء ما كان للحضارات السابقة على بعثة المصطفى (ﷺ) من إيجابيات، فلم توجد أمة على وجه الأرض دون أن يأتيها نذير من الله (تعالى)، ولكن التاريخ قد أهمل ذكرهم. فجميع الحضارات الإنسانية قد أسهمت فى عمارة الأرض، واكتسبت قدرا من المعرفة بالكون ومكوناته وظواهره، مما يعتبر من ضرورات الوجود البشرى من الناحية المادية على الأقل، وهذه المعارف توارثتها أجيال الإنسان المتعاقبة من ذلك العلم الوهبى الذى اختص الله (تعالى) به أبانا آدم - على نبينا وعليه من الله السلام - والذى لخصه الحق (تبارك وتعالى) بقوله العزيز:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. (البقرة . ٣١)

وبإضافة أقدار من العلم الكسبى (الذى يكسبه الإنسان باجتهاده) إلى ما ورثه الإنسان من هذا العلم الوهبى جيلا بعد جيل، وأمة بعد أمة تطورت المعارف الإنسانية، وتتابعت الحضارات البشرية، فى صعود وهبوط، وازدهار وأفول، وإيمان وكفر، وبقى لنا من تاريخ البشرية على الأرض، وحضاراتها المتعاقبة: آلاف من الأصنام والأوثان والأنصاب، والأزلام، وأكداس من المعارف التى غلبت عليها لهفة المنفعة المادية العاجلة، وأرتال من الخرافات والأوهام والأساطير، ولذلك فقد دارت أغلب الحضارات المدونة تاريخيا فى مدار الماديات الملموسة المدركة، والمهارات اليدوية المتعددة، ونزعت إلى خلط الحقائق الدينية بكثير من الخيال والوهم والخرافة، ووظفت ذلك

فى محاولة لتفسير العديد من ظواهر الكون وأحداثه المتكررة، وذلك انطلاقا من أعداد من الفلسفات الوضعية، والرؤى الفردية والجماعية المحدودة، كاعتماد العقل الإنسانى وحده مصدرًا للحقائق مستغنيا بذاته عن المشاهدة؛ لأن منهم من كان يرى أن المشاهدة تضل العقل بدعوى أن الحواس البشرية محدودة القدرة، وغير مأمونة على حسن الإدراك، وهو أسلوب تميز به الفكر اليونانى القديم الذى يعتبره الغرب - زورا - أصلا للمعارف العلمية، ومنبعا للحضارات الإنسانية، وقد كان فلاسفة اليونان القدامى فى الحضارة الهيلينية يكتفون فى طلب العلم والتعرف على أسرار الكون بمجرد التفكير النظرى فى خلوة، ولذلك برعوا فى قضايا مثل الرياضيات والهندسة النظرية، ولكنهم ضلوا فى كثير من القضايا العلمية التى تحتاج إلى المشاهدة والاستنتاج، أو إلى التجربة والملاحظة والاستنتاج وفشلوا فيها فشلا ذريعا، كما ضلوا فى النواحى العقدية ضلالا بعيدا، وتركوا سيلا من الأساطير والخرافات والأوهام، وصلوا فيها إلى العديد من الاستنتاجات الظنية التى لا تقوم على دليل مادى ملموس، واعتبروها من الحقائق المسلمة دون برهان سوى ما قد افترضوه ابتداءً بطريقة نظرية بحتة، ثم يزعمون أن ذلك من الحق الذى يركنون إليه فى إثبات ما يتوصلون إليه من استنتاجات خيالية غير مرتكزة على أدنى قدر من الحق الملموس أو المشاهدة المدركة، وقد كان ذلك هو الأسلوب الغالب فى الحضارة اليونانية القديمة التى يحاول مؤرخو الغرب أن يجعلوا منها أم الحضارات لمجرد كونها حضارة غربية. وأمثال

هذا الخلط المبنى على أساس من العصبيات الإقليمية الضيقة كثير فى تاريخ الحضارات بصفة عامة، وفى تاريخ الحضارات الكافرة أو المشركة بصفة خاصة.

وعلى الرغم من ذلك كله فإننا نؤمن بالحقيقة الإسلامية الثابتة القائمة على أساس من وحدة السلالة البشرية التى يصفها الحق (تبارك وتعالى) بقوله العزيز:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. (النساء: ١)

ويصفها خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) بقوله الشريف: «**كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب**[١]».

ونؤمن بأن الإنسان بدأ عالما عابدا انطلاقا من قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. (البقرة: ٣١)

وقوله (عز من قائل):

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

(البقرة. ٣٧)

وأن تاريخ البشرية على الأرض قد عرف أجيالاً عاشت بنور الهداية الربانية، وأن هذه الأجيال عرفت قيمة تلك الهداية الربانية

(١) رواه البزار فى مسنده.

فالتزمت بها، وعرفت قيمة العقل والحواس فى التعرف على سنن الله فى الكون وتوظيفها فى عمارة الحياة على الأرض، وإقامة عدل الله فيها، فوصلت عن طريق الاستقراء المنطقى للكون ومكوناته وظواهره - إلى قدر من المعارف التى توارثتها الأجيال اللاحقة، وكانت الأساس الذى انطلقت منه غالبية الحضارات الإنسانية التى نؤمن بوحدة تراثها، وتكامله من جيل إلى جيل. وأن الإنسانية كلما عاشت بنور الهداية الربانية سعدت وأسعدت.

ولكننا نؤمن أيضا بأن الإنسان فى طبعه ميل للنسيان، وميل كذلك للخروج على منهج الله، ويظل النسيان والابتعاد عن منهج الله يقذفان بالمجتمعات الإنسانية فى دياجير من الظلم والظلمات حتى تصبح الحاجة ملحة إلى نور الهداية الربانية من جديد، فإن كانت الرسالة السماوية التى أنزلت لهؤلاء القوم لاتزال محفوظة بأيدى الناس ولكنهم انصرفوا عنها، يبعث الله (تعالى) نبيا من أنبيائه يردهم إليها بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوى وبالمعجزات الشاهدة له بالنبوة.

وإن كانت الرسالة السماوية قد ضاعت أو حرفت وشوهت فإن الله (تعالى) يبعث رسولا من رسله بنفس ركائز الرسالة التى ضيعها أو حرفها الناس، وهى - فى أصولها - رسالة واحدة تدعو الناس إلى عبادة الله الواحه القهار (سبحانه وتعالى)، الذى ليس لهم من إله غيره فعليهم أن يعبدوه وحده بالطريقة التى يرتضيها، وتدعوهم إلى مكارم الأخلاق، وإلى ضوابط السلوك بين الناس، وإلى الاجتهاد فى عمارة الحياة على الأرض وإلى حسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها، وإقامة عدل الله عليها،

والاستعداد للحساب فى الآخرة التى هى حياة بلا موت إما فى الجنة أبدا أو فى النار أبدا، وتبقى رسالة السماء واحدة من لدن أبينا آدم (عليه السلام) إلى بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) واسمها «الإسلام» وإن تباينت تفاصيل التشريعات فى المعاملات من زمن إلى آخر لتوافق ظروف ذلك الزمن.

وبقيت البشرية يتعاورها الإيمان والكفر، والتوحيد الخالص لله، والشرك المفضوح به، والاستقامة على منهج الله، والخروج الجزئى أو الكامل عنه حتى وصلت إلى حالة من الضياع قبل بعثة المصطفى (ﷺ) الذى بعثه الله (تعالى) لهداية البشرية جميعا، وإصلاح عقائدها وعباداتها وأخلاقها ومعاملاتها، فاستكملت رسالات السماء كلها فى بعثته الشريفة، ولما كان ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ـ خاتم الأنبياء والمرسلين فقد تعهد ربنا (تبارك وتعالى) بحفظ رسالته إلى يوم الدين فحفظت على مدى أربعة عشر قرنا أو يزيد وإلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها تحقيقا للوعد الإلهى الذى قطعه (سبحانه وتعالى) على ذاته العلية فقال (عز من قائل) :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ . (الحجر: ٩)

وتخير ربنا (تبارك وتعالى) لتبليغ تلك الرسالة الخاتمة أكمل البشر خلقا، وأكرمهم خلقا، وأشرفهم نسبا، وأقدرهم على القيام بواجبات الرسالة الخاتمة، ولذلك أعده الله (تعالى) إعدادا لم ينله مخلوق من قبل ولا من بعد، وكرمه تكريما لم ينله مخلوق من قبل ولن يناله أحد من بعده وجعله (ﷺ) إماما للمتقين، وقائدًا للموحدين ، وزعيما للغر المحجلين، ومثلا أعلى للأنبياء والمرسلين (ﷺ) .

الباب الثانى

مواقف فى إعـداد المصطفى (ﷺ) للرسـالة الخاتمـة

أعد الله (تعالى) خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) خير إعداد لحسن قيامه بتبليغ الرسالة الخاتمة على الوجه الأكمل والأمثل، وكان من ذلك اصطفاء نسبه الشريف، واختيار المكان الذى بعث فيه وهو أشرف بقاع الأرض، والدورة التربوية التمحيصية التى أمرره الله (تعالى) فيها تزكية لنفسه الطاهرة، وزيادة فى خلقه الكريم، وتكريسا لأدبه الذى أدبه به الله (تعالى) مما يمكن إيجازه فيما يلى:

أولا: اختيار مكة المكرمة لتكون مكان ميلاده (ﷺ):

هاجر إبراهيم الخليل (عليه السلام) من أرض العراق إلى بلاد الشام، ومنها إلى مصر يدعو إلى التوحيد الخالص لله (تعالى)، وكانت امرأته سارة عقيما، فوهبها الله (تعالى) جارية من مصر هى السيدة هاجر أم نبى الله إسماعيل (عليه السلام) التى وهبتها سارة لزوجها كى يتزوجها فرزقه الله (تعالى) منها ولده إسماعيل الذى ولد بأرض فلسطين المباركة من بلاد الشام، ثم حمله أبوه هو وأمه بأمر من الله (تعالى) إلى مكة المكرمة وهو لا يزال رضيعا.

فقد أمر الله (تعالى) إبراهيم (عليه السلام) أن يضع الرضيع إسماعيل وأمه عند مكان البيت الحرام الذى كان قد تهدم وبقيت قواعده، فجاء بهما إبراهيم (عليه السلام) من بلاد الشام إلى مكة المكرمة وأسكنهما فى هذا الوادى غير ذى الزرع انصياعا لأمر الله (تعالى): ولم يكن بمكة يومئذ أحد من الناس، ولا ماء للشرب، ولا نبت إلا بعض الأشجار الشوكية من السلم، والسمر، والروح، فترك لهما إبراهيم جرابا فيه تمر، وسقاء به قدر من الماء، ثم قفل راجعا فى طريقه إلى بلاد الشام، فتبعته هاجر وهى تقول : أين تذهب

وتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شيء؟ورددت ذلك مرارا وهو لايلتفت إليها، ولعلمها أنه نبى مرسل قالت له : آلله الذى أمرك بهذا ؟ قال: نعم، قالت : إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، وهى مطمئنة القلب، طيبة النفس، راضية بقدر الله، وانطلق إبراهيم حتى اختفى عنهما عند ثنية فى الوادى، فاستقبل بوجهه مكان البيت الحرام ثم دعا دعاءً سجله القرآن الكريم يقول فيه :

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ . (إبراهيم : ٣٧)

ثم لم يلبث ما عند هاجر من ماء أن نفد وعطشت هى وابنها، فانطلقت حتى قامت على أقرب جبل منها وهو الصفا لتنظر هل ترى أحدًا، ثم هبطت وسعت سعى المجهود حتى أتت المروة فقامت عليها فلم تر أحدا، وفعلت ذلك سبع مرات، وذلك سعى الحجيج والمعتمرين كما قال رسول الله (ﷺ). وفى نهاية الشوط السابع جاء جبريل وطرق بجناحه موضع زمزم ففار منها الماء، ولذلك يصفها رسول الله (ﷺ) بقوله : «**هى هزمة جبرائيل، وسقيا الله لإسماعيل**»، ويقول (ﷺ) : «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم**»[1] ، ويقول: «**ماء زمزم لما شرب له**»[2].

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير.

(٢) رواه أحمد فى مسنده وابن ماجه والبيهقى فى سننه والحاكم فى المستدرك .

فشربت أم إسماعيل، وأرضعت ولدها، ثم جاءها جبريل (عليه السلام) ليقول لها: «**لا تخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله**»[1].

وبينما هاجر ورضيعها فى هذه الحال مَرَّ بمكة المكرمة ركب من قبيلة جرهم قافلين من الشام بتجارة لهم، وهم فى طريقهم إلى اليمن، فرأوا طيورا تحوم حول الوادى فعلموا أن ماء قد تفجر فيه فاستأذنوا بالنزول على الماء فأذنت لهم بذلك، وبعثوا إلى اليمن من يأتيهم بأهلهم.

ولما شاع خبر تفجر ماء زمزم ونزول قوم من قبيلة جرهم فى وادى مكة المبارك بإذن من أم إسماعيل (عليه السلام)، تكاثر الناس فى وديان مكة وشعابها.

وبعد أن بلغ إسماعيل أشده تزوج من جرهم زيجتين، ثم أمر الله (تعالى) إبراهيم (عليه السلام) برفع القواعد من البيت فعاد إلى مكة المكرمة وقام بذلك هو وولده إسماعيل (عليهما السلام)، ثم غادر إبراهيم إلى أرض فلسطين المباركة، تاركا ولده إسماعيل فى مكة المكرمة وقد أرسله الله (تعالى) إلى أهلها وإلى من والاها من قبائل حتى بلاد اليمن يدعو إلى الإسلام بحنيفيته السمحة التى دعا إليها إبراهيم (عليه السلام) والتى عاش عليها أهل هذه البلاد ردحا من الزمن مخلصين العبادة لله (تعالى) وحده بغير شريك ولا شبيه ولا منازع حتى جاء شيطان من شياطين الإنس يدعى عمرو ابن يحيى الخزاعى فدعا إلى عبادة الأصنام التى كان قد جلبها من بلاد الشام. وكأى دعوة باطلة انتشرت هذه الوثنية كما انتشرت

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

غيرها من الوثنيات المختلفة فى جزيرة العرب كانتشار النار فى الهشيم، إلا أن قلة من حكماء العرب بقيت على إخلاص العبادة لله (سبحانه وتعالى) وحده فسموا بالحنفاء، وفى ظل هذه الردة فقدت صحف إبراهيم (عليه السلام)، وبدأ من بقى من الحنفاء متطلعا إلى معرفة الله (سبحانه وتعالى) ومتشوقا إلى عبادة يتقرب بها إليه مما كان قد فرض على زمن كل من إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، وكان أغلبها قد اندثر ونسى فى ظل الوثنيات العديدة التى اجتاحت جزيرة العرب، فقام نفر من هؤلاء الحنفاء بالسفر إلى كل من بلاد الشام، والعراق، والحبشة بحثا عما بقى من دين الله عند أهل الكتاب بيد أنهم لم يجدوا شيئا، فقد كانت موجات الشرك قد اجتاحت الغالبية الساحقة منهم فبدلوا فى دينهم وغيروا.. وأحدثوا فيه ما لم ينزل عليهم أمر به من الله (سبحانه وتعالى).

وتأكد لبقايا الحنفاء من العرب أنه لا وجود للحنيفية السمحة عند الغالبية الساحقة من أهل الكتاب الذين كان نفر منهم يبشر بمقدم النبى الخاتم والرسول الخاتم من مكة المكرمة فعادوا أدراجهم إليها يترقبون خروج هذا النبى الخاتم والرسول الخاتم (ﷺ) وقد علموا من بعض أهل الكتاب أنه قد أطل زمانه.

من هنا يتصور كثير من مؤرخى السيرة أن الله (تعالى) قد أمر إبراهيم (عليه السلام) بوضع زوجته هاجر وولدها إسماعيل (عليه السلام) عند البيت الحرام لكى يعيدا بناءه بعد أن يبلغ إسماعيل أشده، وهذا صحيح، لكن نضيف إلى ذلك أن من أهداف هذه الغربة أن يأتى خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) من نسل إسماعيل (عليه السلام)، فيولد بمكة المكرمة، أشرف بقاع الأرض على الإطلاق، تلك البقعة التى نزل بها أول الخلق وأول الأنبياء

أبونا آدم (عليه السلام) فيلتقى أول النبوة بختامها فى تلك البقعة الطاهرة المطهرة من أرض الله، تأكيدا على وحدة رسالة السماء وعلى ختمها ببعثة النبى الخاتم والرسول الخاتم (ﷺ) .

من كرامات أم القرى :

(١) **فضل مكة المكرمة على بقاع الأرض**: خلق الله (تعالى) فيما خلق كلا من المكان والزمان، وجعلهما أمرين متواصلين، فلا يوجد مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، وكما فضل الله (تعالى) بعض الأفراد على بعض، فضل بعض الأمكنة على بعض، وفضل بعض الأزمنة على بعض.

فمن البشر فضل الله (تعالى) الأنبياء والمرسلين على بقية خلقه، وبين الأنبياء والمرسلين فضل بعضهم على بعض فقال (عز من قائل) :

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ . (البقرة :٢٥٣)

ومن تفضيل الله (تعالى) لبعض الأماكن على بعض: فضل مكة المكرمة وحرمها الشريف على جميع بقاع الأرض، ثم فضل المدينة المنورة من بعد مكة المكرمة، وفضل بيت المقدس من بعد المدينة المنورة كما جاء فى أحاديث رسول الله (ﷺ) .

وفى تفضيل بعض الأزمنة على بعض ما جاء من فضل يوم الجمعة على بقية أيام الأسبوع الذى وصفه المصطفى (ﷺ) بأنه «**خير يوم طلعت فيه الشمس**»[1] ، وفضل شهر رمضان المبارك على بقية أشهر السنة، و من بعد رمضان يأتى فضل أشهر الحج، ومن بعدها بقية الأشهر الحرم، كذلك فضل الله (تعالى) الليالى العشر الأواخر من رمضان على بقية ليالى السنة، وجعل ليلة القدر أفضلها على الإطلاق وجعلها خيرا من ألف شهر، وفضل الله (تعالى) الأيام العشر الأوائل من ذى الحجة على بقية أيام السنة، وجعل أفضلها على الإطلاق يوم عرفة الذى قال عنه المصطفى (ﷺ) بأنه «**خير الدعاء يوم عرفة**»[2] فإذا اجتمع فضل المكان وفضل الزمان تضاعفت البركات بإذن الله، وكذلك إذا اجتمع فضل زمانين كأن يصادف يوم عرفة يوم الجمعة مثلا، تضاعف الأجر إن شاء الله. ومن هنا كانت فريضة الحج على كل مسلم، عاقل، بالغ، مستطيع ولو مرة واحدة فى العمر كى لا يحرم بركة المكان (مكة المكرمة)، والزمان (الأشهر الحرم)، وفى ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى) :

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً .....﴾ .

(آل عمران : ٩٧)

ويقول المصطفى (ﷺ) : «**لاتشد الرحال إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا**»[3].

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده والترمذى فى سننه .

(٢) رواه الترمذى فى سننه .

(٣) متفق عليه .

(٢) ومن فضائل مكة المكرمة: أن الله (تعالى) قد اختارها مكانا لأول بيت وضع للناس فى الأرض فقال ـ عز من قائل ـ :

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ .

(آل عمران : ٩٦)

(٣) مركزية مكة المكرمة للكون: وفى ذلك يقول المصطفى (ﷺ): «**كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض**»[١] و(الخشعة) أكمة لاطئة بالأرض، والجمع (خشع). يروى عنه (ﷺ) قوله: «**دحيت الأرض من مكة، فمدها الله (تعالى) من تحتها فسميت أم القرى**»[٢] وذكر كل من ابن عباس وابن قتيبة (رضى الله عنهم أجمعين) أن مكة المكرمة سميت باسم «أم القرى» لأن الأرض دحيت من تحتها لكونها أقدم الأرض.

ويأتى العلم فى أواخر القرن العشرين ليؤكد لنا أن أرضنا غمرت فى مرحلة من مراحل خلقها غمرا كاملا بالماء، ثم شاءت إرادة الله (تعالى) أن يصدع قاع هذا المحيط الغامر بعدد من الخسوف الأرضية التى انبثقت منها ثورة بركانية عنيفة ظلت تلقى بملايين الأطنان من حممها فوق قاع هذا المحيط الغامر لتكون سلسلة جبلية فوق ذلك القاع، كانت أول قمة برزت منها فوق الماء هى أول يابسة تعرفها الأرض، وكانت على هيئة جزيرة بركانية صغيرة تشبه العديد من الجزر البركانية التى تملأ محيطات الأرض اليوم من مثل جزر اليابان، الفلبين، إندونيسيا، وهاواى. وكانت هذه الجزيرة الأولى هى أرض مكة المكرمة.

(١) الهروى، الزمخشرى .

(٢) مسند أحمد الإمام ٤/ ٣٠٥ ، وموارد الظمآن لابن حبان: حديث رقم (١٠٢٥) .

وباستمرار النشاط البركانى نمت هذه الجزيرة البركانية الأولية بالتدريج بواسطة عملية الدحو (أى الإضافة والنمو بواسطة الثورات البركانية المتلاحقة) حتى تكونت اليابسة على هيئة قارة واحدة تعرف باسم «القارة الأم» .

ثم شاءت إرادة الله (سبحانه وتعالى) أن يمزق هذه القارة الأم بواسطة شبكة من الصدوع والخسوف الأرضية التى مزقتها إلى القارات السبع المعروفة لنا اليوم والتى استمرت فى الزحف متباعدة عن بعضها البعض حتى وصلت إلى أوضاعها الحالية، ولا تزال تزحف إلى يومنا هذا وحتى نهاية لا يعلمها إلا الله.

وفى كل الحالات ابتداءً من اليابسة وهى قارة واحدة، وبعد تفتتها إلى القارات السبع وبقائها أقرب إلى بعضها البعض من أوضاعها الحالية، وهى فى أوضاعها الحالية ظلت مكة المكرمة مركزا لليابسة. ولاتزال القارات السبع تتحرك ببطء إلى نهاية لا يعلمها إلا الله محتفظة بوسطية مكة المكرمة.

وفى محاولة علمية جادة لتحديد الاتجاهات الدقيقة للقبلة (أى إلى الكعبة المشرفة) من المدن الرئيسية فى العالم وجد الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ أن مكة المكرمة تتوسط اليابسة بمعنى أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة توزيعا منتظما حول مكة المكرمة، وقد سبق أن أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقول الحق (تبارك وتعالى) مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) :

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. (الأنعام: ٩٢)

وقوله (سبحانه):

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

(الشورى : ٧)

وإذا جمعت هذين الآيتين الكريمتين مع قول الحق (تبارك وتعالى) مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. (سبأ . ٢٨)

اتضح لنا بجلاء أن المقصود (بأم القرى ومن حولها) هو الأرض جميعها.

كذلك أثبت الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين - رحمه الله رحمة واسعة - أن الأماكن التى تشترك مع مكة المكرمة فى نفس خط الطول (٨١٧َ ٣٩° شرقًا) تقع جميعها على خط مستقيم يتجه إلى الشمال والجنوب الجغرافيين (الحقيقيين)، وهى ميزة ينفرد بها خط طول مكة المكرمة وامتداده فى الجانب الآخر من الكرة الأرضية ، ومعنى هذا الكلام أنه لا يوجد انحراف مغناطيسى على امتداد خط طول مكة

المكرمة وهى ميزة ينفرد بها دون جميع خطوط الطول الأخرى، وهو مادفع الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ إلى اقتراح خط طول مكة ليكون خط الطول الأساسى للكرة الأرضية، بدلا من خط طول جرينتش الذى فرضته الإمبراطورية البريطانية على العالم بحد السيف، ودفعه أيضا (رحمه الله) إلى إعادة إسقاط خطوط الطول الأخرى بدءا من خط طول مكة المكرمة، وذلك لتماثل خطوط الطول حوله تماثلا مذهلا، ولميل خط طول جرينتش حوالى ٨,٥ درجة إلى الغرب.

ليس هذا فقط، بل إن تدبر آيات القرآن الكريم، واستقراء عدد من أقوال المصطفى (ﷺ) يشير إلى أن مكة المكرمة ليست فقط فى مركز الأرض، بل هى فى مركز الكون، وفى ذلك يروى مجاهد عن رسول الله (ﷺ) قوله : «**إن الحرم حرم مناء من السماوات السبع والأرضين السبع**»[1]، و(مناء) معناها قصده وفى حذاه، وقد أثبتت دراسات علوم الأرض وجود سبعة نطق متمايزة فى أرضنا، يغلف الخارج منها الداخل، والكعبة المشرفة فى مركز الأرض الأولى، ومن تحتها ست أرضين، وحول الأرض سبع سماوات متطابقة يغلف الخارج منها الداخل خاصة أن الدراسات الفلكية الحديثة قد أثبتت أن كوننا كون منحنٍ، وهذه الملاحظة كافية للبرهنة على تطابق كل من السماوات السبع والأرضين السبع حول الكعبة المشرفة، ومن هنا كان حديث رسول الله (ﷺ) الذى سبقت الإشارة

(١) أخرجه الأزرقى فى أخبار مكة الـ ٣٥٥.

إليه، وقوله (ﷺ) : «**البيت المعمور منا مكة**»[1] ووصف ذلك البيت المعمور فى حديث آخر بقوله (ﷺ): «**البيت المعمور بيت فى السماء يقال له الضراح وهو بحيال الكعبة**»[2].

ويؤكد المصطفى (ﷺ) تلك الحقيقة بقوله الشريف: «**يا معشر أهل مكة إنكم بحذاء وسط السماء**»[3].

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بورود ذكر الأرض - على ضآلة حجمها - فى مقابلة السماء - على ضخامة اتساعها - فى عشرات الآيات القرآنية، وبالإشارة إلى البينية الفاصلة للأرض عن السماوات فى عشرين آية صريحة، ويجمع أقطار السماوات والأرض فى سورة الرحمن مما يؤكد على مركزية الأرض بالنسبة إلى الكون، ولذلك قال ربنا (تبارك وتعالى) مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ):

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. (الأنعام: ٩٢).

(٤) **اختيار الكعبة المشرفة قبلة للعابدين:** من فضائل مكة المكرمة أن الله (تعالى) قد وضع فيها الكعبة المشرفة التى جعلها قبلة للعابدين من خلقه من لحظة الهبوط بكل من آدم وحواء (عليهما السلام) إلى الأرض، وحتى قيام الساعة.

---

(١) أخبار مكة للأزرقى.

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان .

(٣) رواه الفاكهى فى أخبار مكة .

وفى ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالى) مخاطبا خاتم أنبيائه. ورسله (ﷺ) :

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .

(البقرة : ١٤٤)

(٥) ذكر مكة المكرمة المتكرر فى القرآن الكريم: أنها المدينة الوحيدة من جميع مدن الأرض التى ورد ذكرها فى كتاب الله، كما ذكر حرمها الشريف سبعًا وعشرين مرة، وسميت باسمها سورة من سور القرآن الكريم هى «سورة البلد».

(٦) أنها المدينة الوحيدة التى أقسم بها ربنا (تبارك وتعالى) فى محكم كتابه فقال (عز من قائل) :

﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ . (البلد : ١)

والقسم هنا بالبلد الحرام وهو مكة المكرمة، التى حرمها، وجعل حرمتها منذ خلق السماوات والأرض ليجعلها حرما آمنا. ونفى القسم فى اللغة العربية توكيد للقسم، وتعظيم للأمر الذى جاء به القسم، وقسم الله (تعالى) - وهو الغنى عن القسم - بمكة المكرمة وبالكعبة المشرفة. فيه تنبيه لنا إلى عظيم مكانتها عند الله، وشرف قدرها عنده (سبحانه وتعالى)، ومن هنا كان الحج إليها حقا لله (تعالى) على كل مسلم بالغ، عاقل، قادر، مستطيع، وكان الاعتمار بها عبادة من أعظم العبادات عند الله ، ومن أجلِّ القربات إليه (سبحانه وتعالى) ، وفى تعظيم هذه العبادة يقول المصطفى (ﷺ) : «الحجاج

والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم»[1].

ويقول (ﷺ) : «إن الله تعالى ينزل على أهل هذا المسجد، مسجد مكة، فى كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة: ستين للطائفين، وأربعين للمصلين، وعشرين للناظرين»[2].

وفى ذلك يقول المصطفى (ﷺ) : «لاتزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها، فإذا ضيعوا ذلك هلكوا»[3].

(٧) حرمة مكة المكرمة منذ خلق السماوات والأرض : وفى ذلك يروى عن رسول الله (ﷺ) قوله: «إن مكةَ حرَّمَها اللهُ، ولم يحرمها النَّاس»[4].

وقال رسول الله (ﷺ) يوم فتح مكة المكرمة : «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، لايعضد شوكه، ولاينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرَّفها»[5].

وقال (ﷺ): «إن الله حَرَّمَ مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرام الله إلى يوم القيامة»[6].

وقال (ﷺ) فيما خطب به الناس يوم الفتح : «إن مكة حرمها الله يوم خلق السماوات والأرض، لايحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولايعضد بها شجرا، فإن أحد ترخص فى

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه.
(٢) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير.
(٣) أخرجه أحمد ، وابن ماجه .
(٤) صحيح البخارى ١/٧٢٢ .
(٥) رواه البخارى فى صحيحه وأحمد فى مسنده .
(٦) مصنف عبد الرزاق ٥/١٤٠ .

قتال فيها، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن له ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها أمس»[1].

وفى ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ . (المائدة : ٩٧)

ويقول (عز من قائل) على لسان خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) :

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ . (النمل : ٩١)

ويقول (سبحانه وتعالى) :

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ . (البقرة : ١٩١)

وقال (ﷺ): «**لايحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة**» [2].

ومن هنا تغلظ الدية على من ارتكب جناية القتل فى الحرم المكى كله.

(٨) تحريم دخول المشركين إلى حرم مكة المكرمة كله : وذلك انطلاقا من قول الحق (تبارك وتعالى) :

---

(١) صحيح البخارى ١/٧٢٢ .

(٢) رواه مسلم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. (التوبة : ٢٨)

(٩) تغليظ العقوبة على المسيئين بالحرم المكى كله، انطلاقا من قوله (تعالى):

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. (الحج : ٢٥)

(١٠) تحريم كلٍ من مكة المكرمة والمدينة المنورة على الدجال؛ وذلك لقول رسول الله (ﷺ): «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة»[١].

(١١) وجوب الإحرام قبل الدخول إلى مكة المكرمة وقبل تجاوز مواقيتها: لايجوز لمن أراد الحج أو العمرة أن يدخل إلى الحرم المكى إلا محرمًا، وعلى خلاف عن بقية المساجد فإن تحية الكعبة الطواف، والدعاء فى حرمها مستجاب، ويفضل صلاة العيد فيه.

(١٢) حسنات الحرم المكى مضاعفة إلى مائة ألف ضعف: فلا يوجد على وجه الأرض بلدة يرفع الله فيها الحسنة الواحدة إلى ألف حسنة إلا مكة المكرمة فمن صلى فيها صلاة رفعت له مائة ألف صلاة، ومن صام فيها يوما كتب له صوم مائة ألف يوم، ومن تصدق فيها بدرهم، كتب الله (تعالى) له أجر مائة ألف

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

درهم صدقة، وذلك لقول المصطفى (ﷺ): «**صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، فإن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فى غيره، وصلاة فى المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة**» [1].

(١٣) وفود جميع النبيين والمرسلين وصالح عباد الله من أهل السماوات والأرض إلى مكة المكرمة: هذا بالإضافة إلى ما فى الحرم المكى من مقدسات ومنها الكعبة المشرفة، وكل من الحجر الأسود، ومقام إبراهيم، وبئر زمزم، والركن اليمانى، وحِجْر إسماعيل، والصفا والمروة، وغيرها كثير.

وفى مقدسات الحرم المكى يروى عن رسول الله (ﷺ) قوله: «**الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة**» [2].

وفى رواية للبيهقى أضاف: «**ولولا مامسَّهُمَا من خطايا بنى آدم لأضاءا مابين المشرق والمغرب، ومامسهما من ذى عاهة ولاسقيم إلا شفى**».

ويؤكد ذلك مارواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى (ﷺ) قال: «**نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضًا من اللبن، فسودته خطايا بنى آدم**» [3].

وقوله (ﷺ) لأم المؤمنين السيدة عائشة (رضى الله عنها) وهى تطوف معه بالكعبة حين استلم الركن: «**لولا ما طبع الركن**

---

(١) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه.

(٢) أخرجه الترمذى وأحمد، والحاكم، وابن حبان.

(٣) رواه الترمذى فى سننه.

من أنجاس الجاهلية وأرجاسها وأيدى الظلمة والأثمة لاستشفى به من كل عاهة ولألقى اليوم كهيئة يوم خلقه الله وإنما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة وليصبرن إليها وإنها لياقوتة من ياقوت الجنة وضعه الله حين أنزل آدم فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة والأرض يومئذ طاهرة ولم يعمل فيها شىء من المعاصى»[1].

وقال كثير من الرواة أن نبى الله إسماعيل (عليه السلام) وأمه - رحمهما الله - مدفونان بحجر إسماعيل الذى يعرف أيضًا باسم الحطيم، ويذكر عن المصطفى (ﷺ) قوله : «**ما بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيًا جاءوا حجابًا فقبروا هنالك**»[2] على نبينا وعليهم من الله السلام.

كما يروى عنه (ﷺ) قوله : «**كان النبى من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق مكة فتعبد بها حتى يموتوا**»[3]

وجاء فى «القرى لقاصد أم القرى» لمؤلفه الشيخ محب الدين الطبرى (١/٢٨) عن النبى (ﷺ) أنه قال: «**كان النبى من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق بمكة، فيعبد الله تعالى ومن معه حتى يموت، فمات فيها نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وقبورهم بين زمزم والحجر**»[4].

وقوله: «**فى مسجد الخيف قبر سبعين نبيا**» [5]

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير.

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره.

(٣) ذكره القرطبى فى تفسيره.

(٤) الشيخ محب الدين الطبرى (١/٢٨).

(٥) رواه الهيثمى ووثق رجاله .

وقوله (ﷺ): «حج خمسة وسبعون نبيا كلهم قد طاف بهذا البيت، وصلى فى مسجد منى»(١).

وجاء فى تاريخ مكة للأزرقى ما نصه: «وما من نبى من الأنبياء، ولا رسول من الرسل (عليهم الصلاة والسلام) إلا قد حج البيت الحرام، وطاف به، ووقف على المشاعر المقدسة فى هذه البقاع الطاهرة، فلما كان إبراهيم (عليه السلام) بالشام أراه الله (عز وجل) البيت وبوأه له فخرج إليه من الشام، ومعه ابنه إسماعيل، وزوجه هاجر أم إسماعيل الذى كان طفلا صغيرًا ترضعه أمه هاجر».

ثانيا: شرف نسبه (ﷺ):

كان رسول الله (ﷺ) فى قمة البشرية : سلامة صدر، وطهارة نفس، وعظيم خلق، وسمو سلوك، وحسن فهم لرسالة الإنسان فى هذه الحياة، فكان أشرف ولد آدم حسبا، وأفضلهم نسبا من قبل كل من أبيه وأمه (ﷺ) لأن الله (تعالى) قد انتخبه من جميع البشر انتخابا وراثيا خاصا، فمن أجداده (ﷺ) من عَبَد الله (تعالى) على الحنيفية السمحة التى دعا إليها كل من إبراهيم وولده إسماعيل (عليهما السلام)، وقد شرفهم الله (تعالى) بتنزيههم عن عبادة الأوثان، ومن هؤلاء الأحناف من العرب أولاد معد بن عدنان الجد الأعلى لرسول الله (ﷺ)، وكل من ربيعة ومضر الذين هم من صرحاء ولد إسماعيل (عليه السلام)، ومنهم جده الثانى هاشم بن عبد مناف الذى كان يؤمِّن الخائف ويؤدى الحقوق، ويحمل ابن السبيل. وكان منهم جده

(١) رواه الفاكهى فى أخبار مكة .

المباشر عبد المطلب بن هاشم الذى كان قد ولى سيادة العرب بعد عمه (المطلب) وقد كان هذا العم كما تروى السير : «ذا شرف فى قومه وفضل، وكانت قريش إنما تسميه (الفيض) لسماحته وفضله» . (سيرة ابن هشام).

أما عبد المطلب نفسه فيذكر عنه ابن إسحاق ما نصه :

«ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرِّفادة بعد عمه «المطلب» فأقامهما للناس، وأقام لقومه ماكان آباؤه قبله يقيمونه لقومهم عن أمرهم، وشرف فى قومه شرفًا لم يبلغه أحد من غير آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم» (سيرة ابن هشام).

وجاء فى «نسب الأشراف» (١/ ٨٤) أن عبد المطلب بن هاشم كان أول من تعبد بحراء وكان يأمر ولده بترك البغى والظلم، ويحثهم على مكارم الأخلاق، ومنها الوفاء بالنذر، والنهى عن وأد البنات، وعن كل من الخمر والزنا ونكاح المحارم، والطواف بالبيت فى عرى كامل كما كان ينهاهم عن سفاسف الأمور، ويقول (كما جاء فى بلوغ الأرب): «**والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسىء بإساءته**».

ويروى أن عبد المطلب كان مجاب الدعوة، وكانت تستسقى به قريش إذا أصابهم القحط فيسقيهم الله بدعائه غيثا عظيما، وأن النور كان يتلألأ من وجهه، وتلوح فى أساريره علامات الخير، ويكفى أنه ألهم مكان زمزم فى منامه وقام بحفرها بعد أن كانت قد طمرت.

وكان من عمداء الأحناف فى النسب الأعلى لرسول الله (ﷺ) كعب ابن لؤى الذى كانت قريش تجتمع إليه يوم الجمعة من كل أسبوع فيأمرهم بالإطاعة، والفهم، والتعلم، والتفكر فى خلق السماوات

والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتقلب الأحوال، والاعتبار بما جرى على الأولين، والآخرين، ويحثهم على صلة الأرحام، وإفشاء السلام، وحفظ العهد، ومراعاة حق القرابة، والتصدق على الفقراء والأيتام، ويذكرهم بالموت وأهواله، واليوم الموعود وأحواله، ويبشرهم بمبعث خاتم الأنبياء والمرسلين وأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه إن أدركوه وأنه يخرج من بيت الله الحرام.

وبناء على ذلك كتب الشيخ محمود شكرى الألوسى (رحمه الله) فى كتابه القيم «بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب (٢/ ٢٨٢)» ما نصه: «**وذهب كثير من العلماء إلى أن جميع أصول النبى (ﷺ) من الآباء، والأمهات كانوا موحدين فى اعتقادهم، مؤمنين بالبعث والحساب، وغير ذلك مما جاءت به الحنيفية من الأحكام**».

وأضاف (٢/ ٢٨٥، ٢٨٦): «**وبالجملة إذا خبرت حال نسبه (ﷺ)، وعرفت طهارة مولده علمت أنه سلالة آباء كرام سادوا، ورأسوا... كلهم سادة قادة اشتهروا بأحسن المكارم والفضائل**».

كذلك كتب الشيخ أبو الحسن على بن محمد الماوردى (رحمه الله) فى كتابه (أعلام النبوة) ما نصه : «**صفوة عباده، وخير خلقه، لما كلفهم من القيام بحقه استخلصهم من أكرم العناصر، وأمدهم بأوكد الأواصر حفاظا لنسبهم من قدح، ولمنصبهم من جرح، لتكون النفوس لهم أوطأ، والقلوب لهم أصفى فيكون الناس إلى إجابتهم أسرع، ولأوامرهم أطوع**».

وذكر ابن إسحاق فى بعض مناقب رسول الله (ﷺ) أنه: «**شب يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه عن أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا،**

وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرما حتى ما كان اسمه في قومه إلا الصادق الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة».

ومن ناحية نسبه البعيد (ﷺ) فإن ذلك يربطه بكل من نبي الله إسماعيل ووالده أبي الأنبياء إبراهيم (عليهما السلام)، والقرآن الكريم يصف إبراهيم (عليه السلام) بقول الحق (تبارك وتعالى) :

■ ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾. (الأنعام : ٨٣)

■ ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ . (هود : ٧٥)

■ ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . (النحل: ١٢٠ - ١٢٣)

■ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ .
(الأنبياء : ٥١)

■ ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .
(الصافات : ٨٣، ٨٤)

■ ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ . (النجم : ٣٧)

■ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ......﴾ (الأنعام : ١٢٤)

وفى ذلك يقول المصطفى (ﷺ) : «**بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا، حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه**»[(١)].

وقال (عليه الصلاة والسلام) «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم**». [(٢)].

وعلى ذلك فقد ظل خط الكمال الإنسانى متصلا من آدم إلى إبراهيم، ومن إبراهيم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين).

وفى ذكر إسماعيل (عليه السلام) جاء قول الحق (تبارك وتعالى) :

■ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ . (البقرة : ١٢٥)

■ وقوله (سبحانه):

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . (البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩)

(١) صحيح البخارى .
(٢) صحيح مسلم .

■ وقوله (عز من قائل):

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

(الأنعام : ٨٦)

■ وقوله (سبحانه وتعالى) :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ .

(مريم : ٥٤ ، ٥٥)

■ وقوله (تعالى):

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ﴾ . (ص. ٤٨)

وعلى ذلك فإن النبوة هى فى الأصل هبة من الله (تعالى) الذى يختار لها صفوة الناس من عباده خَلْقًا وخُلُقًا، وحسبا ونسبا وفى ذلك يقول ربنا (عز من قائل) :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ....﴾. (الأنعام : ١٢٤)

ويؤكد القرآن الكريم على أن الخلق أجمعين كانوا فى صلب أبينا آدم لحظة خلقه: الذين عاشوا وماتوا، والذين يملأون جنبات الأرض اليوم والذين سيأتون من بعدنا إلى قيام الساعة وأن الله (تعالى) قد أشهدهم على حقيقة ربوبيته ووحدانيته فقال (عز من قائل) :

﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾. (الأعراف: ١٧٢)

وفى ذلك تقرير للقوانين الحقيقية للوراثة واكتساب الصفات، وهى قوانين لم يتم اكتشافها إلا فى القرنين الماضيين فقط، وتقرر أن المرء يرث عن أبويه بعض صفاتهما، وأن هذا الميراث قد يمتد إلى الأجداد من الجانبين إلى أبى البشر آدم (عليه السلام) الذى ركز الله (تعالى) فى صلبه كل صفات البشر التى لا نهاية لتعددها، ولا سبيل إلى حصرها.

وتثبت البحوث المتأخرة تشابه جميع بنى آدم فى التركيب الكيميائى للحمض النووى الذى تكتب به الشفرة الوراثية للإنسان إلى نسبة ٩٩,٩٪، وأن الاختلاف الذى لا تتعدى نسبته ٠,١٪ قد أعطى الله (تعالى) منه بصمة وراثية خاصة لكل فرد من البلايين التى عاشت وماتت، والتى تملأ جنبات الأرض اليوم، والتى سوف تأتى من بعدنا إلى قيام الساعة مما يشهد لله (تعالى) بطلاقة القدرة، وعظيم الصنعة وإبداع الخلق.

وعلى ذلك فقد امتدت شجرة النبوة من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وإلى من كان بينهم من الأنبياء (عليهم السلام) ثم انتهت إلى فرعين ابتدأ أحدهما بإسماعيل (عليه السلام) وانتهى بمحمد (ﷺ) الذى ختمت بنبوته شجرة النبوة وختمت برسالته رسالات السماء، وربما كان من أجل ذلك قضاء الله (تعالى) بوفاة أولاده الذكور كلهم فى حياته (ﷺ) .

أما الفرع الآخر من أفرع النبوة فقد ابتدأ بإسحاق (عليه السلام) وانتهى بعيسى ابن مريم (عليهما السلام) ، وبرفعه وعدم زواجه وتعقيبه توقفت النبوة فى هذا الفرع، وبعودته إلى الأرض وإيمانه برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) يتم التحام جميع أفرع

شجرة النبوة فى الرسالة الخاتمة التى بعث بها النبى الخاتم والرسول الخاتم (عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى السلام).

وكان انتشار الحنيفية فى ذرية كل من إبراهيم وولده اسماعيل (عليهما السلام) وبقاؤها فيهم، أو فى البعض منهم، خاصة فى سلسلة نسب خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) استجابة لدعوتهما التى سجلها القرآن الكريم بقولهما:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (البقرة: ١٢٨، ١٢٩)

وبالإضافة إلى كماله البشرى (ﷺ)، فقد عرَّضه ربنا (تبارك وتعالى) للبلاء الذى تعرض له غيره من الأنبياء والمرسلين، ويتعرض لبعضه غيرهم من خيار الخلق، وأعده الله (تعالى) إعدادًا نفسيًّا خاصًّا حتى يتدرب على تحمل الشدائد، والصبر على تبعات التكليف، ومسئولية التبليغ عن الله (تعالى) ، واستيعاب صدمات الحياة، والاعتماد على خالقه وحده بعد استنفاد الطاقة البشرية، ولذلك دربه الله (سبحانه وتعالى) على تحمل آلام اليتم، من الأب، وآلام الاغتراب عن أمه وبقية أهله فى مضارب بنى سعد حتى سن الخامسة.

ثم عاد (ﷺ) إلى أمه فى مكة المكرمة وقد كان حزنها على وفاة أبيه قد بلغ منها مبلغا، ورأت وفاءً لذكرى أبيه الراحل أن تصحب طفله الوحيد لزيارة قبره بيثرب، وبعد الزيارة توفيت عنه أمه فى الطريق.

ثالثا: الإعداد الشخصي له (ﷺ):

■ بعد حسن اختيار نسبه وشرف مولده تعهد ربنا - تبارك وتعالى - عبده محمدا برعايته وعنايته، منذ طفولته المبكرة، فحفظه من سلبيات الطفولة والشباب، ومن شرك المشركين، وكفر الكافرين، فلم يقترب من الأصنام أبدا، وحفظه ربنا - سبحانه وتعالى - من الكذب والخيانة، ومن صغائر الأعمال، فعرف منذ نعومة أظفاره بالصادق الأمين، كما عرف بالحكمة، ورجاحة العقل، وصائب الفكر، وبعد النظر، ولذلك حكّمته قريش بشأن وضع الحجر الأسود فى مكانه حين اختلفوا على ذلك وهو شاب يافع، كما حفظه ربنا (تبارك وتعالى) من الصحبة غير الصالحة وذلك بميله إلى الخلوة التى مكنته من المراجعة الشاملة للذات وللكون من حوله فى إطار فكر مستقل استقلالا كاملا عن محيط الجهل والكفر والشرك الذى كان يغمر العالم من حوله ، فتعلم (ﷺ) الصلة بخالقه من قبل أن يأتيه الوحى، والتشوق إلى لقاء الله قبل أن يرسل إليه، وزهد فى الدنيا، وهان قدرها عنده وهو يعلم أنه لو طلبها لجاءته طائعة مسرعة.

ومع تزايد سنه، كان نقاؤه النفسى ، وشفافيته الروحية يزيدان حتى التقى محمد بن عبد الله بالحقيقة الأزلية التى التقى بها قبله كل أنبياء الله ورسله، والتى مؤداها أن لهذا الكون ربا هو خالقه ومبدعه، وأن هذا الكون ينطق بالشهادة لهذا الإله الواحد بالألوهية، والربوبية، والوحدانية، وبالتنزيه عن صفات خلقه من مثل الشبيه أو الشريك أو المنازع أو الصاحبة والولد، وبالتنزيه كذلك عن حدود كل من المكان والزمان والمادة

والطاقة، وعبد قلبه الشريف وعقله الراجح هذا الإله الواحد قبل أن يأمره بذلك وحى السماء. وعلى الرغم من ذلك فقد شاءت إرادة الله (تعالى) أن يمر المصطفى (ﷺ) بسلسلة من الابتلاءات ـ وهو أحب خلق الله إلى الله ـ وذلك من أجل إعداده للمهمة العظيمة التى قام بها، وتدرب على استيعاب الصدمات، وتجاوز المحن والشدائد التى قابلها فى التبليغ عن ربه، وكان من ذلك موت والده قبل مولده، وزهد المرضعات فيه لفقره، وهو ابن الحسب والنسب والشرف، ثم غربته فى ديار بنى سعد لمدة خمس سنوات تقريبا بعيدا عن أهله، وموت أمه وهو فى السادسة من عمره، وموت جده وهو فى الثامنة، ورعى الغنم لأهل مكة على قراريط قليلة وهو دون الثانية عشر، والسفر إلى بلاد الشام فى تجارة مع عمه وهو فى الثالثة عشر، والقيام بالصلح بين قبائل قريش حين اختلفوا فيمن يعيد الحجر الأسود إلى مكانه، ثم الميل الشديد إلى الخلوة، والتعبد الفطرى لله الخالق فى هذه الخلوة التى اختارها لذاته الشريفة فى غار حراء. (وقد سبق لجده عبد المطلب أن اختلى بنفسه فيه)، وما صاحب ذلك من تأمل وتفكر وتَدَبُّرٍ بعيدا عن سلبيات فترة الشباب ومشاغل الحياة .

ومن المعجزات الحسية المبهرة أن فتحة غار حراء متجهة إلى الكعبة المشرفة، بحيث يكون الجالس فى الغار متجها إلى القبلة تماما، وأن الصعود إلى الغار فيه من المشقة البدنية ما فيه، ويعجب الإنسان كيف كان المصطفى (ﷺ) يصعد هذا الارتفاع الشاهق الشديد الوعورة ويهبطه مرات عديدة حتى يخلو فى عبادة ربه بعيدا عن كفر الكافرين، وشرك المشركين ووثنياتهم،

وانحرافاتهم الفكرية والسلوكية، وحتى يتهيأ للمسئولية الكبرى التى ألقتها العناية الإلهية على كاهله وهى هداية البشرية بعد أن غاصت فى بحور من الضلال.

وقد أدت هذه العوامل مجتمعة إلى إكساب خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) من فصاحة اللسان وحسن البيان، وقوة الشخصية، والقدرة الفائقة فى الاعتماد على النفس، واكتساب ملكة القيادة والاتزان فى الحكم على الأشياء، والخبرة فى التعامل مع الخلق على المستويين العام والخاص، والعدل بين الناس فى الرضا والغضب، والعفو عند المقدرة، والشجاعة الباسلة، والبر بالأهل والأقارب وذوى الأرحام، والرفق بالحيوان، وغير ذلك من مكارم الأخلاق ما أهله ليكون مثلا أعلى للإنسانية بصفة عامة وللأنبياء والمرسلين بصفة خاصة، وأن يجتمع فيه الكمال البشرى كما لم يجتمع من قبل، ولن يجتمع من بعد فى أى من بنى آدم فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

ولولا هذا الإعداد الشاق ربما كان من الصعب عليه (ﷺ) أن يتحمل الصدمات العديدة، والابتلاءات الشديدة التى واجهها من مثل موت جميع أبنائه الذكور وثلاث من بناته الإناث فى حياته، وموت زوجته الوفية أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها وأرضاها)، وفراق بناته وعدد من أصحابه بالهجرة، والتعذيب والتنكيل الذى تعرض له نفر من أتباعه حتى استشهد عدد منهم، وتنكر نفر من أقرب الناس إليه لدعوته من مثل عمه أبى لهب، ومحاصرته ومن معه فى شعب بنى هاشم لثلاث سنوات كاملة حتى أكلوا ورق الشجر، وتنكر أهل

الطائف له ، وتآمر قريش على قتله أو حبسه أو نفيه واضطراره إلى الهجرة من مكة ، ونفاق المنافقين فى المدينة وخيانتهم، وتنكر اليهود لكل عهودهم معه، وتآمرهم مع أهل الكفر عليه، وما أشاع عنه هؤلاء من افتراءات وأكاذيب، ودخوله (ﷺ) فى أكثر من خمسين غزوة وسرية فى خلال عشر سنوات حتى فتح الله (تعالى) عليه مكة المكرمة.

كل هذه الشدائد والابتلاءات والمحن كانت من الوسائل التى هيأها الله (تعالى) لإعداد خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) الإعداد اللازم من أجل حسن القيام بأداء رسالته الخاتمة، ومن أجل أن تبقى سيرته العطرة نموذجاً عملياً للبشرية كلها على مر الزمن، ولكل من أراد الإصلاح على هذه الأرض، وإقامة عدل الله فيها، وهداية الناس إلى دين الله الحق الذى لا يرتضى ربنا (تبارك وتعالى) من عباده دينا سواه.

الباب الثالث

بعض النبوءات بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) فى كتب الأولين

أولا: فى كتب أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

جاء فى سفر التكوين (الأصحاح ٤٩ :١٠) ماترجمته:

«لايزول صولجان من يهوذا أو مشترع من قدميه حتى يأتى (شيلوه) ويكون له خضوع الشعوب».

وفى ترجمة أخرى لدار الكتاب المقدس تقول: «لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب» وفسر هذه النبوءة القسيس المهتدى البروفيسور عبد الأحد داود ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ فى كتابه المعنون : (محمد فى الكتاب المقدس) تحت عنوان «محمد هو الشيلوه» بأن هذه النبوءة تشير بوضوح إلى النبى المنتظر لأن من معانى الكلمة العبرية (شيلوه) (Shilh) صاحب الصولجان والملك، ومن معانيها الهادئ، المسالم، الأمين، الوديع والصيغة الآرامية للكلمة هى شليا (Shilya) بمعنى الأمين. والرسول الخاتم (ﷺ) عرف من قبل بعثته الشريفة بلقب الصادق الأمين.

وجاء فى سفر تثنية من نفس العهد القديم (تثنية ١٨/ ١٥ ـ ٢٠) ما ترجمته: «يُقيمُ لك الرب إلهك: نبيا من وسطك، من إخوتك، مثلى، له تسمعون، حسب كل ما طلعت من الرب إلهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا: لا أعود أسمع صوت الرب إلهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت، قال لى الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا، **أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه،** وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى...».

والنبى الذى أقامه الله (تعالى) لهداية الناس من وسط إخوة اليهود وهو مثل موسى (عليه السلام) والذى تكلم باسم الله لأن الله (تعالى) قد جعل كلامه فى فمه هو سيدنا محمد (ﷺ) لأن شبه موسى إليه أكبر من شبه عيسى إلى موسى (عليهم جميعا من الله السلام).

وجاء فى مطلع الأصحاح الثالث والثلاثين من سفر تثنية كذلك (تثنية: ١/٣٣) ما ترجمته: «**وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم**».

وجبل فاران أو باران (Paran) كما جاء فى سفر التكوين (٢١: ١٢) هو البرية التى هاجر إليها إسماعيل (عليه السلام) وأمه هاجر (رضى الله عنها)، وجاء فى أغلب شروح الكتاب المقدس أن الإسم (فاران) أو (پاران) هو تعبير عن جبال مكة المكرمة، وتلألؤ الله (تعالى) من جبل فاران هو اكتمال رسالته إلى خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ)، وبدء تنزل هذا الوحى الخاتم فوق جبال مكة المكرمة فى غار حراء، ومجىء الله (تعالى) من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم تنبؤ برحلة الإسراء والمعراج التى أكرم الله (تعالى) بها خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) فحمله فى جزء يسير من الزمن من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك الله (تعالى) حوله والذى ندعو الله القادر أن يطهره من دنس اليهود ورجسهم فى أقرب وقت إن شاء الله، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى حيث

شرف بالحضرة الإلهية، وفرضت عليه وعلى أمته الصلاة، وعاد (ﷺ) إلى مكة المكرمة وفراشه لا تزال دافئة.

وجاء فى المزمور الرابع والثمانين من العهد القديم (١ ـ ٧) ما ترجمته: «**ما أحلى مساكنك يا رب الجنود، نشتاق بل تتوق نفسى إلى ديار الرب، قلبى ولحمى يهتفان بالإله الحى، العصفور أيضا وجد بيتاً والسنونة عشا لنفسها حيث تضع أفراخها، مذابحك يا رب الجنود ملكى وإلاهى، طوبى للساكنين فى بيتك أبدا يسبحونك، سلام ؟**».

«**طوبى لأناس عزهم بك، طرق بيتك فى قلوبهم، عابرين فى وادى البكاء (بكة) يصيرونه ينبوعا، أيضا ببركات يغطون مورة، يذهبون من قوة إلى قوة، يرون قدام الله فى صهيون**».

ومساكن الله ودياره ـ والله (تعالى) لا تحده حدود كل من المكان والزمان ـ تتمثل فى أول بيت وضعه للناس فى مكة المكرمة والذى لا يخلو من عباد الله، ومكة اسمها فى القرآن الكريم «بكة» وقد حرفت إلى وادى البكاء علما بأنها فى الأصول القديمة ذكرت بالاسم القرآنى «بكة» (Baca)، والنص كما جاء فى الترجمة الإنجليزية لما يسمى باسم سلسلة ثومبسن للإنجيل المرجعى : (The Thompson Chain Reference Bible) والمنشور فى كل من ولايتى إنديانا وميتشجان بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٨٣م تجرى كما يلى:

(O lord Almighty, my'King and my God, Blessed are Those whose Strength is in you, who have set their hearts on Pilgrimage, as They Pass Through The Valley of Baca, They make it a Place of spring, The autumn rains also cover it with pools).

والفرق بين الترجمتين العربية والإنجليزية واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ودليل دامغ على التحريف الذى تعرضت له مزامير داود فيما تعرضت له جميع كتب أهل الكتاب، ولا تزال تتعرض له حتى زماننا الراهن وإلى قيام الساعة.

وجاء فى سفر إشعيا من العهد القديم (إشعيا ١١ :٤) وصف للرسول الخاتم بأنه إنما يقضى بعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسى الأرض، ويعاقب الأرض بقضيب فمه، ويميت المنافق بنفخة شفتيه، لأنه سيرتدى البر ويتمنطق بالأمانة. وهذه كلها من صفات سيدنا محمد بن عبد الله (ﷺ):

* وجاء فى الأصحاح الثانى والأربعين من نفس السفر (سفر إشعيا) وصف آخر لخاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) جاءت ترجمته فى طبعة دار الكتاب المقدس بلبنان على النحو التالى:

«هو ذا عبدى الذى أعضده، مختارى الذى سرت به نفسى، وضعت روحى عليه فيخرج الحق للأمم، لا يصيح، ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوته، قصبة مرضوضة لا يقصف، وفتيلة خامدة لا يطفىء، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض، وتنتظر الجزائر شريعته».

وهذه الأوصاف تنطبق انطباقا كاملا على رسولنا (ﷺ) خاصة وأن سفر إشعيا (١١) يربط هذا الرسول المنتظر بأنه من نسل كدار وسفر التكوين (٢٥: ١٣) يذكر بهذا الاسم (كدار) الابن الثانى لإسماعيل (عليه السلام).

وجاء فى سفر رؤيا من العهد الجديد (١٩ : ١١، ١٥) ماترجمته:

«ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا حصان أبيض يسمى راكبه باسم (الأمين الصادق) الذى يقضى ويحارب بالعدل..».

ووصف (الأمين الصادق) ينطبق حرفيا على سيدنا محمد (ﷺ) لأن أهل مكة المكرمة كانوا قد سموه من قبل بعثته الشريفة باسم (الصادق الأمين) كما سبق وأن أسلفنا.

وجاء فى كتاب أخنوخ (The Book of Enoch) وصف للرسول الخاتم بأنه «الصادق» وهى لفظة تنطق بالعبرية كما تنطق بالعربية تمامًا، وهذا الكتاب الذى ينسب إلى إدريس (عليه السلام) اكتشفه الرحالة (بروس) فى بلاد الحبشة فى القرن التاسع عشر الميلادى، ويقال إن تاريخه يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد، وإنه كان قد كتب أصلاً بالآرامية فى بعض أجزائه، وبالعبرية فى البعض الآخر، واعتبر من الكتب المقدسة عند الآباء الأولين للكنيسة المسيحية من أمثال كل من (كلمنت وأريانوس) وقد فقد الكتاب بعد القرن الثالث الميلادى وظل مفقودًا إلى أن تم اكتشاف نسخة الحبشة فى القرن التاسع عشر الميلادى.

ووصف «الصادق الأمين» هو وصف أطلقه أهل مكة المكرمة على خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) من قبل أن يأتيه وحى السماء.

وجاءت الإشارة فى إنجيل يوحنا من العهد الجديد (يوحنا : ٦/ ٢٧) إلى أن خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) يحمل خاتم النبوة بين كتفيه، وذلك بما ترجمته: «**لاتسعوا وراء الطعام الفانى بل وراء الطعام الباقى إلى الحياة الأبدية، والذى يعطيكم إياه ابن الإنسان، لأن هذا قد وضع الله ختمه عليه**».

ومن الثابت تاريخا أن رسول الله (ﷺ) كان يحمل خاتم النبوة بين كتفيه.

وحتى هجرة المصطفى (ﷺ) تنبأ بها «سفر حبقوق» من العهد القديم (٣/٣ ، ٤) حيث جاء فيه ما ترجمته: «**الله جاء من تيمان (تيماء)، والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السماوات والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع وهناك استتار قدرته**».

وإذا كان جبل فاران هو وادى مكة المكرمة (أو بكة) فمن غير سيدنا محمد (ﷺ)؟ الذى هاجر منها إلى قرب تيماء (وهى مدينة فى شمال المدينة المنورة) ؟

وكذلك تنبأ سفر إشعيا (٢١: ١٣ ـ ١٧) بهجرة المصطفى (ﷺ) وجاء ذلك بما ترجمته:

«**وَحْى من جهة بلاد العرب. فى الوعر من بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب فإنه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وبقية عدد فى أبطال بنى قيدار تقل لأن الرب قد تكلم**».

ثانيا: عند الأحناف من أهل جزيرة العرب:

■ فهذا بحيرى الراهب السورى الذى لقى محمدًا وهو لا يزال فى الثالثة عشر من عمره وقد اصطحبه عمه فى رحلة للتجارة مع بلاد الشام فيرى فيه نبى آخر الزمان الذى قربت بعثته، والذى كان مع مجموعة من زملائه ينتظرون تلك البعثة بفارغ

الصبر، ويعرفون شيئًا من صفاته، ومكان ميلاده، وإرهاصات مقدمة، وأنه صاحب الرسالة الخاتمة، وأنه سوف يحارب ولكنه سوف ينتصر على أعدائه، فقال لعمه: «**ارجع به إلى بلدك، واحذر عليه يهود فسوف يكون له شأن**».

■ وهذا هو ورقة بن نوفل القرشي الأسدى أحد حنفاء قريش وابن عم أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد (رضى الله تبارك وتعالى عنها) وكان ممن اطلع على ما بقى من كتب أهل الكتاب فصدق رسول الله (ﷺ) وكان أول الرجال إيمانا ببعثته الشريفة واستعدادا لمناصرته والدفاع عنه.

وقد ذكر أبو داود الطيالسى فى مسنده أن ورقة بن نوفل قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل إلى بلاد العراق يلتمسان الدين الصحيح حتى انتهيا إلى راهب بالموصل فقال الراهب لزيد: **من أين أقبلت يا صاحب البعير؟**

قال: من بيت إبراهيم.

قال الراهب: وما تلتمس؟

قال زيد: ألتمس الدين.

قال الراهب: ارجع، فإنه يوشك أن يظهر الذى تطلب فى أرضك.

فعادا إلى مكة المكرمة، فى انتظار ظهور النبى الخاتم والرسول الخاتم (ﷺ) .

ويروى عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يستقبل الكعبة المشرفة وهو يقول: «**دينى دين إبراهيم، وإلهى إله إبراهيم**» (كشف الأستار ٣/٢٨١). **وكان ورقة بن نوفل يفعل نفس الشيء ويقول:** «**إلهى إله زيد، ودينى دين زيد**» (نفس المصدر).

ويروى ابن إسحاق فى سيرته (صفحة ٩٩) أن راهب بيعة من أرض البلقاء كان ينتهى إليه شيء من علم النصرانية قال لزيد بن عمرو بن نفيل أنه حين سأله عن الحنيفية دين إبراهيم ما نصه: **«إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لقد درس علمه وذهب من كان يعرفه، ولكنه قد أظلك خروج نبى يبعث بأرضك التى خرجت منها بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق ببلادك فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه»**.

وجاء فى دلائل النبوة للبيهقى (١/ ١٤٥) أن ورقة بن نوفل قال لرسول الله (ﷺ) حين صحبته أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد إليه: **«يا ابن أخى ماذا ترى؟»** فأخبره رسول الله (ﷺ) خبر ما رأى.. فقال له ورقة: **«هذا الناموس الذى نزل الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعا، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك»** فقال رسول الله (ﷺ): **«أومخرجى هم؟»**.

قال ورقة: **«نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا»**، ثم قال ورقة للسيدة خديجة فيما قال: **«يا بنية أخي: ما أدرى، لعل صاحبك النبى الذى ينتظر أهل الكتاب، الذى يجدونه مكتوبا عندهم فيما بقى من آثار كل من التوراة والإنجيل.. وأقسم بالله لئن كان إياه، ثم أظهر دعاءه، وأنا حى لأبلين الله في طاعة رسول الله وحسن مؤازرته، الصبر والنصر»**..

وعلى الرغم من أن ورقة بن نوفل قد توفى فى السنة الرابعة من النبوة إلا أنه قد اعتبر صحابيا بارا ، لأن رسول الله (ﷺ) حينما سئل عنه وعن رفيقه زيد بن عمرو بن نفيل. قال عن زيد: **«ذاك أمة وحده، يحشر بينى وبين عيسى بن مريم»**[1].

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد .

وقال عن ورقة: «**رأيته يمشي فى بطنان الجنة عليه حلة من سندس**» (١).

وقال فيه أيضا: «**يبعث يوم القيامة أمة وحده**»(٢).

■ وهذا عداس خادم الأخوين عتبة وشيبة ابنى ربيعة يعترف بنبوة محمد (ﷺ) بمجرد أن سمعه يقول: «**باسم الله**»، ولمجرد معرفته (ﷺ) بنبى الله يونس بن متى.

■ وهذا سلمان الفارسى (رضى الله عنه) يذكر ما أوصاه به صاحب عمورية بقوله: «**أى بنى : والله ما أعلم أحدا من الناس أصبح على ما كنا عليه فآمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبى، هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل.. به علامات لا تخفى.. يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.. بين كتفيه خاتم النبوة.. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل**» (٣).

■ وهذا عبد الله بن سلام من أحبار اليهود مَنَّ الله (تعالى) عليه بالإسلام فشهد بوجود صفة المصطفى (ﷺ) عند اليهود يعنى فيما بين أيديهم من كتب.

وروى قصة إسلامه قائلا : «**لما سمعت برسول الله (ﷺ) عرفت صفته، واسمه، وزمانه الذى كنا نترقب له، فكنت مُسرًا لذلك، صامتا عليه، حتى قدم رسول الله (ﷺ) المدينة، فلما نزل بقباء، فى بنى عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا**

(١) أخرجه البزار فى مسنده .

(٢) المعجم الكبير للطبرانى .

(٣) رواه أحمد والطبرانى والبزار بسند صحيح.

فى رأس نخلة لى أعمل فيها، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله (ﷺ) كبرت، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت، فقلت لها : أى عمة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعث بما بُعث به، فقالت : أى ابن أخى! أهو النبى الذى كنا نخبر أنه بعث مع نفس الساعة (أى الذى بعثته علامة على قرب القيامة)؟

فقلت لها : نعم، فقالت : فذاك إذن.

قال عبدالله بن سلام : ثم خرجت إلى رسول الله (ﷺ) فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامى عن يهود، ثم جئت رسول الله (ﷺ) فقلت له : يارسول الله : إن يهود قوم بهت (أى أهل باطل أو على الباطل)، وإنى أحب أن تدخلنى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى.

فأدخلنى رسول الله (ﷺ) فى بعض بيوته، ودخل عليه وفد من رؤساء اليهود فكلموه وسألوه، ثم قال لهم (ﷺ) : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم : يامعشر يهود! اتقوا الله واقبلوا ماجاءكم به رسول الله (ﷺ) فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله (ﷺ)، وأؤمن به

وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بى، فقلت لرسول الله (ﷺ): ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور، فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

لذلك جاء القرآن الكريم فى العديد من آياته مؤكدًا على علم أهل الكتاب بمقدم الرسول الخاتم (ﷺ) وإن أنكر ذلك غالبيتهم وفى ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى) :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة : ٨٩).

وجاء قوله (عز من قائل) :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة : ١٤٦).

ونزل قوله (سبحانه وتعالى) :

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف : ١٥٧).

وقوله (جل شأنه) :

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا

آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

(القصص : ٥٢ ـ ٥٤)

وقوله (سبحانه):

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾. (الحج : ٥٤)

وقوله (تبارك وتعالى) :

﴿...فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾. (الصف : ١٤)

وقوله (سبحانه) :

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

(الفتح : ٢٩)

وفى مجموعة من المخطوطات المعروفة باسم «مخطوطات نجع حمادى» تشبيه لصحابة الرسول الخاتم (ﷺ) ينطبق على الوصف الوارد فى هذه الآية الكريمة. وقد اكتشفت هذه المخطوطات فى صعيد مصر سنة ١٩٤٥م وعلم منها أنها تتبع طائفة نصرانية منقرضة تسمى طائفة

الغنوصيين (The Gnostics) انتهى وجودها فى القرن الرابع الميلادى، وقد وجدت هذه المخطوطات مكتوبة باللغتين اليونانية والقبطية، وتحوى عددًا من الأناجيل غير المتداولة بأيدى نصارى اليوم مثل «إنجيل توماس»، «إنجيل فيليب»، «إنجيل مريم»، و«إنجيل المصريين» والعديد من الرسائل المختلفة التى منها رسالة تسمى «رسالة جيمس» (The Apocryphon of James)

وفيها يشبه الكاتب مملكة السماء (أى دولة الرسول الخاتم) بنخلة خرج منها برعم من البراعم (شطء من الأشطاء) ثم تساقطت من هذا البرعم ثمار حوله فأنبتت، وأخرجت ورقًا، وبعد إنباتها جفت فأضيفت إلى الثمار التى نمت من هذا الجذر الأول وتجرى الترجمة (إلى اللغة الإنجليزية) كما جاءت فى هذا المؤلف :

على النحو التالى:

"Do not allow the Kingdom of heaven to wither for it is like a palm shoot whose fruit has dropped down around it. These (Fallen Fruits) put forth leaves, and after they have sprouted, they caused their womb to dry up. so it is also with the fruit which had grown from this single root".

(The Nag Hammadi Library,) Edited by James. M. Robinson (1988)

وجاء فى إنجيل يوحنا المتداول بين أيدى نصارى اليوم (يوحنا ١٦: ١٢ ـ ١٤) ما ترجمته: «إن لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من

نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم...»

وهذا الوصف شديد الانطباق على خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) الذى بشر بمقدمه عيسى ابن مريم، لأن رسول الله (ﷺ) يصفه القرآن الكريم بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾. (النجم: ٣، ٤)

ويروى عن المصطفى (ﷺ) قوله: **«إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»**(١).

وقد أوضح القرآن الكريم البشارة بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) وذلك فى قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩).

وأوضح ربنا (تبارك وتعالى) تلك البشارة بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) مرة أخرى وذلك بقوله (عز من قائل):

---

(١) رواه أحمد، والبزار، والطبرانى، وابن حبان، وجاء فى مجمع الزوائد للهيثمى .

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. (الصف: ٦)

وذكر المصطفى ﷺ رؤيا أمه السيدة آمنة بنت وهب بقوله الشريف:

« ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» قيل كان مناما رأته حين حملت به (ﷺ)، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم.

وذلك كله كان من النبوءات بمقدمه (ﷺ) والبشارات المتتابعة بذلك المقدم الميمون الذى أتم الله (تعالى) به سلسلة الأنبياء والمرسلين، وجعله خاتمه أجمعين (فصلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين).

الباب الرابع

من الأحداث الهامة
فى حياته (ﷺ)

أولا: وفاة أبيه قبل مولده (ﷺ):

كان عبد الله بن عبد المطلب أصغر أبناء سيد قريش، وأحبهم إلى قلبه، وكان عبد المطلب قد ألهم في منامه مكان بئر زمزم، وقام بحفرها هو والحارث أكبر أبنائه ووحيده في هذا الوقت فنذر إن جاءه عشرة من الأبناء أن ينحر أحدهم عند الكعبة قربانا لله (تعالى) وعرفانا بفضله عليه، وبعد أن تحقق له ذلك جمع أبناءه العشرة ذات يوم واستشارهم في أمر نذره، فتسارع كل واحد منهم إلى التضحية بنفسه، وفاء لنذر أبيه وفداء لإخوته، فكان لابد من الاقتراع، وعند ذلك خرج قدح عبد الله لثلاث مرات، وضجت مكة لمنع التضحية بعبد الله، وتم الاقتراح بإجراء الاقتراع على عبد الله أو عشرة من الإبل فإن خرجت القداح عليه زيد مثلها حتى يتم فداؤه، وبالفعل خرجت القداح على مائة من الإبل فتم فداؤه بها بعد أن ضربت القداح ثلاث مرات وتخرج على المائة من الإبل.

ثم تعاقبت السنون بعد حادثة الفداء حتى بلغ عبد الله بن عبد المطلب الرابعة والعشرين من عمره فخطب له والده آمنة بنت وهب وهي فتاة السؤدد والرفعة، ذات خلق نبيل، وعفة وشرف، أصيلة النسب أبا وأما، ومن قوم ذوي عزة وسيادة، فأبوها كان سيد قبيلته «زهرة»، وأمها كانت برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب، وبذلك كانت تلتقي مع عبد الله في الجد الرابع من طرفي الأب والأم، وتحدد موعد العرس الذي كان فرحا لمكة كلها، وكان فريدا في نوعه حيث لم تشهد العرب مثيلا له من قبل.

وبعد شهور قليلة من زواجه سافر عبد الله إلى بلاد الشام في تجارة، وفي طريق العودة مرض مرضا شديدا فاضطر إلى البقاء

فى يثرب عند أخواله من بنى النجار، ولكنه لم يلبث أن توفاه الله بعد أن تركته القافلة متجهة إلى مكة المكرمة، ولم ير وحيده الذى تركه جنينا فى بطن أمه، والذى اختارته الإرادة الإلهية ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين).

ثانيا: مولده (ﷺ) :

ولد رسول الله (ﷺ) فى وقت السحر من ليلة الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة الموافق العشرين من إبريل سنة ٥٧٠م فى دار النابغة بمكة المكرمة، وكان هذا هو عام الفيل.

وفى نفس اللحظة التى ولد فيها (ﷺ) انطفأت النار المعبودة فى معابد الفرس، وجفت بحيرة ساوة المقدسة عندهم بعد أن غارت مياهها، وزلزل إيوان كسرى، وسقطت أربع عشرة شرفة من شرفاته، وهزم أصحاب الفيل هزيمة منكرة، وحمى الله (تعالى) مكة المكرمة وأهلها والكعبة المشرفة وما حولها إيذانا بمولده (ﷺ) ، وتكريما وتشريفا.

وكانت أمه السيدة آمنة بنت وهب تقول: « **ما شعرت أنى حملت، ولا وجدت له ثقلا كما تجد النساء، إلا أنى قد أنكرت رفع حيضتى** ».

وكان والده عبد الله بن عبد المطلب قد توفى، وهو (ﷺ) لم يزل فى بطن أمه، وكان عبد الله قد خرج بعد شهرين من زواجه إلى بلاد الشام فى تجارة مع جماعة من قريش، وفى طريق عودتهم مروا بالمدينة ومرض فيها عبدالله فتخلف عند أخواله من بنى النجار فأقام عندهم شهرًا ثم توفاه الله بالمدينة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره. كما سبق وأن أشرنا، وحزن

عليه أبوه عبد المطلب حزنًا شديدًا؛ لأنه كان أحب بنيه إليه، ولكن كان حزن آمنة عليه أشد وأعمق.

وقبل مولده (ﷺ) كان أبرهة الأشرم قد وصل بجيشه الجرَّار إلى مشارف مكة المكرمة، وكان أبرهة حاكمًا حبشيًّا نصرانيا لليمن التى بنى فيها كنيسة ضخمة بمدينة صنعاء عرفت باسم «بيعة القُلَّيس» بهدف صرف أنظار العرب بها عن الكعبة المشرفة، التى كان العرب عموما وأهل اليمن خصوصًا مرتبطين بها ارتباطًا عاطفيًّا شديدًا، ولما لم يتحقق له ذلك قرر هدم الكعبة المشرفة، وجهز لذلك جيشًا جرّارًا مزوّدًا بالفيلة.

واعترض مسار الجيش رجل من أشراف اليمن اسمه «ذو نفر» الذى دعا قومه ومن جاورهم من القبائل العربية لمقاومة جيش أبرهة وصده لأن العرب ـ مع وثنيتهم ـ كانوا يتوارثون تقديس الكعبة المشرفة، والتقى الجيشان فانهزمت القلة الباسلة أمام الكثرة الكافرة، ثم اعترض جيش أبرهة جيش عربى آخر بقيادة «نفيل بن حبيب الخشعمى» ولكن أبرهة تغلب عليه أيضا.

وحين وصل جيش أبرهة إلى مشارف مكة المكرمة وأخذ يتهدد أهلها والكعبة المشرفة فيها بغطرسة فاجرة أهلكه الله (تعالى) وأباده عن آخره بمعجزة خارقة هى الطير الأبابيل التى أرسلها الله (تعالى) عليهم ترميهم بحجارة من سجيل، ووسط أفراح أهل مكة المكرمة بنجاة الكعبة من الهدم ونجاتهم من الموت ولد رسول الله (ﷺ) وسط عالم من الكفر والشرك والضلال وصفه (ﷺ) بعد ذلك بقوله الشريف : «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم : عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**».

وتلخص كتب السيرة قصة أصحاب الفيل على النحو التالى :

أرسل أبرهة رجالاً من الأحباش إلى مكة على خيل معهم فأصابوا منها غنائم كثيرة وكان فى تلك الغنائم مائتا بعير لعبد المطلب سيد قريش، فجاءه رسول من أبرهة يقول : «إن أبرهة لم يأت لحربكم وإنما أتى لهدم ذلك البيت فإن لم تتعرضوا لنا دونه فلا حاجة لنا إلى قتالكم» وطلب منه مرافقته لمقابلة أبرهة، فقال عبد المطلب : «والله لا نريد حربه، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو بيته، وإن يخلى بينه وبينه فما نحن عنه بمدافعين».

وهنا تتضح حكمة عبد المطلب، وإيمانه بالله، وتقديسه للكعبة المشرفة، ويقينه أن لها ربًّا قادرًا على حمايتها من كل سوء، ولم يكن فى استطاعة عبد المطلب أن يتصدى للغزاة، خاصة أن الذين قاوموا جيش أبرهة من قبل وصوله إلى مشارف مكة المكرمة قد هزموا.

وعندما قابل عبد المطلب أبرهة سأله الأخير عن حاجته فقال: حاجتى أن ترد علىَّ إبلى التى أصابها جيشك من مالى، فقال أبرهة : لقد أعجبتنى حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين سمعت مقالتك، أتكلمنى عن مائتى بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه؟!! فقال عبد المطلب : أما الإبل فأنا صاحبها، وأما البيت فله رب يحميه، فرد أبرهة الإبل على عبد المطلب، ورجع بها إلى مكة، وأمر أهلها بالخروج منها والتحصن فى شعب الجبال، ووقف ممسكا بحلقة من حلقات باب الكعبة المشرفة وجعل يقول هذا الرجز :

يارب إن العبد يمـ نـع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليـ ب وعابديه اليوم آلك
جروا جموع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
لم أستمع يوما بأر جس منهم يبغوا قتالك
قصدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك
لايغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك
إن كنت تاركهم وكعـ بتنا فأمر ما بدا لك

وما أحوجنا إلى ترديد هذا الدعاء فى أيامنا هذه والتاريخ يعيد نفسه..!!!

ولم يكن ذلك عن ضعف فى قريش أو جبن أو خوف، ولكن طبيعة الحياة فى حرم الله الآمن، وبجوار بيته الكريم هى التى أضفت عليهم هذه الصورة المسالمة الآمنة، الواثقة من أن للبيت ربًا يحميه. فلما جاء الله بنصره، وأهلك أبرهة وجنده عرفت العرب لقريش هذه المكانة، وازدادت مكانة عبد المطلب فى قومه رفعة وسموا، وذاع صيته وصيت قريش فى أرجاء شبه الجزيرة العربية، واتصل ذلك بميلاد حفيد عبد المطلب محمد بن عبد الله (ﷺ) الذى كان فاتحة يمن وخير وبركة لمكة وللعرب وللكون كله، فصان الله بيته العتيق من عبث الغزاة وفجورهم، ورد كيدهم فى نحورهم، وأبادهم عن بكرة أبيهم وكان ذلك آية من آيات الله، وتشريفا وإرهاصا وبشارة بمقدم خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) الذى أنزل الله (تعالى) عليه قوله الحق:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ (الفيل: ١ - ٥).

وبعد مولده حمل عبد المطلب حفيده وذهب به إلى الكعبة ليباركه وهو سعيد به سعادة غامرة وطاف به البيت سبعة أشواط، وألهم تسميته «محمدًا» ولم يكن هذا الاسم مألوفًا عند العرب، وكان قد ألهم حفر بئر زمزم من قبل. وقال عبد المطلب حين سماه (ﷺ) أردت بهذا الاسم أن يحمده الله فى السماء، وأن يحمده الناس فى الأرض، تحقيقاً لرؤية كان قد رأى فيها أن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور يتعلق بها كل من أهل المشرق وأهل المغرب. وكانت آمنة قد رأت رؤى مشابهة وأمرت كذلك بتسميته محمدًا.

ثالثا: رضاعته (ﷺ) وغربته فى ديار بنى سعد:

كان أول من أرضعته (ﷺ) مولاة عمه أبى لهب، ثم جاءت حليمة السعدية فأخذته إلى ديار بنى سعد وكانت الديار فى جدب واضح، وأنزل الله (تعالى) بركاته على حليمة وأهلها بمجرد اصطحابها لهذا الطفل المبارك حتى ليقول لها زوجها حين أصبح بعد ما حل بهم من بركات فى أول ليلة من اصطحابهم لرسول الله (ﷺ) وهم لا يزالون فى رحلهم ما نصه :

«يا حليمة!! والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟ فلم يزل الله (عز وجل) يزيدنا خيرا».

وتضيف حليمة (فيما ذكره ابن إسحاق) قولها :

«ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتانى بنا الركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى أن صواحبى ليقلن : ويلك

يا بنت أبى ذؤيب! أهذه أتانك التى خرجت عليها معنا؟ فأقول : نعم والله إنها لهى، فيقلن: والله إن لها لشأنا، حتى قدمنا أرض بنى سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فإن كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعا لبنا فنحلب ما شئنا، وما حوالينا أو حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن، وتروح أغنامى شباعا لبنا نحلب ما شئنا. فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ (ﷺ) سنتين، فكان يشب شبابا لا تشبه الغلمان».

(البداية والنهاية لابن كثير جـ٢، ص ٢٩٧)

حين بلغ (ﷺ) عامه الثانى فطم، وأرادت أمه أن تأخذه ولكن حليمة لم تستطع أن تفارقه، فألقت بنفسها عند قدمى الأم سائلة أن تتركه معها حتى يشب صحيحا فى هواء البادية حيث مكث (ﷺ) إلى سن الخامسة تقريبا.

رابعا : وفاة والدته (ﷺ) بعد حوالى العام من وصوله (ﷺ) إلى مكة المكرمة:

عاد محمد (ﷺ) إلى أمه فى مكة المكرمة بعد غربة عنها دامت قرابة الخمس سنوات، وأمه فى غاية الشوق إليه، ولكن وفاءً لذكرى أبيه قررت بعد شهور قليلة من وصوله اصطحابه إلى المدينة وعمره دون الست سنوات لزيارة قبر أبيه والعيش مع أخواله بنى النجار لفترة وجيزة، وكانت معهما أم أيمن تحضنه، فأقاموا عند بنى النجار شهرًا، وفى طريق عودتهم من رحلة الوفاء تلك توفيت أمه (ﷺ) بالأبواء بين المدينة المنورة ومكة المكرمة . وبذلك صار محمد يتيم الأبوين وهو فى السادسة أو دون ذلك من العمر وقد عاش مع أمه سنة واحدة ذاق فيها من

حنانها وعطفها وحبها ورعايتها ما زاد من تعلقه بها وتعلقها به، ثم فجأة غابت عنه إلى يوم الدين.

وقد وقع خبر وفاة آمنة بنت وهب على كل من وحيدها محمد، وجده عبد المطلب، بل على جميع أهل مكة كالصاعقة، وشق على الجد الشيخ يُتم حفيده فى هذه السن الصغيرة فاحتضنه فى كنفه، وجعله تحت رعايته ليعوضه فقدان كل من الأب والأم، وبقيت جاريته الحبشية «أم أيمن» التى خلفها له أبوه قائمة على خدمته لمعرفة جده بمقدار حبها له.

ومن شدة تعلقه بذكرى أمه توقف رسول الله (ﷺ) بالأبواء وهو فى طريقه لعمرة الحديبية لزيارة قبرها قائلا لأصحابه (رضوان الله عليهم أجمعين) :

«**إن الله قد أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه**»، فأتاه (ﷺ) فأصلحه وبكى عنده طويلا، وبكى المسلمون لبكائه، فقيل له فى ذلك، فقال (ﷺ) : «**أدركتنى رحمتها فبكيت**».

وقد روى البيهقى من طريق سفيان الثورى عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: انتهى النبى (ﷺ) إلى رسم قبر، فجلس، وجلس الناس حوله، فجعل يحرك رأسه كالمخاطب ثم بكى، فاستقبله عمر فقال : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) : «**هذا قبر آمنة بنت وهب، استأذنت ربى فى أن أزور قبرها فأذن لى، واستأذنته فى الاستغفار لها فأبى على، وأدركتنى رقتها فبكيت**». قال: «**فما رؤيت ساعة أكثر (بكاء) باكيا من تلك الساعة**».[1]

(١) السنن الكبرى للبيهقى جـ ٤، ص٧٦ باب زيارة القبور .

عاد محمد بن عبد الله (ﷺ) إلى مكة محزونا، صامتا، صابرا، مما زاد فى حب جده وإعزازه له. وذكر الواقدى ما نصه : «كان رسول الله (ﷺ) مع أمه آمنة بنت وهب، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب، وضمه، ورق عليه رقة لم يرقها على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام، وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك: دعوا إبنى إنه يؤسس ملكا».

وقال قوم من بنى مدلج لعبد المطلب : احتفظ به فإنا لم نر قدما أشبه بالقدم الذى فى المقام منه، فقال عبد المطلب لأبى طالب : اسمع ما يقول هؤلاء! فكان أبو طالب يحتفظ به، وقال عبد المطلب لأم أيمن - وكانت تحضنه - : يا بركة! لا تغفلى عن ابنى، فإنى وجدته مع غلمان قريبًا من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة.

وكان عبد المطلب لا يأكل طعاما إلا يقول: «عَلَىَّ بابنى، فيؤتى به إليه.

(البداية والنهاية لابن كثير).

خامسا: وفاة جده (ﷺ) :

بعد عامين من وصوله (ﷺ) إلى مكة مات جده وهو ابن ثمانى سنين بعد أن كان قد ارتبط به ارتباطا عاطفيا هائلا، فكفله عمه أبو طالب وألقى الله (سبحانه وتعالى) محبته فى قلب عمه، فقدمه على أبنائه، وبالغ فى إكرامه.

وقد كان محمد بن عبدالله كثير الصمت فى طفولته، كثير الانفراد بنفسه لايتكلم إلا إذا دعاه أحد إلى الكلام، وكان لايشارك

الفتيان لهوهم، ولايشارك عبدة الأصنام شركهم بعبادة أصنام لا تضر ولا تنفع، ولا تحس ولا تتكلم، فلم يقترب منها أبدا. وكان كلما تقدمت به السن زاد صمته وانفراده بنفسه، وزاد زهده فى الحياة، وراحت سيرته العطرة تعبق أجواء مكة، لصدقه، وأمانته، وإيثاره لغيره، ورحمته الفائقة بالناس وبالحيوان.

سادسا: رحلته الأولى إلى بلاد الشام:

اشتغل محمد (ﷺ) فى صباه برعى الغنم كما فعل غيره من أنبياء الله، فكان يرعى الغنم على قراريط لأهل مكة حتى سن الثانية عشرة، ثم سافر فى قافلة عمه أبى طالب إلى الشام وعمره ثلاث عشرة سنة، وفى أثناء هذه الرحلة وقع له حادث عجيب.

فقد كان راهب باسم (بحيرى) واقفا فى نافذة المعبد الذى يتعبد فيه بسوريا حين استلفتت نظره سحابة بيضاء من الغيم، تعترض زرقة السماء الصافية على غير العادة خاصة أن الجو كان صحوًا، وأن السحابة كانت تظلل قافلة صغيرة تتجه نحو الشمال، وتتبعها كلما تحركت، ثم أناخت القافلة لتستريح أسفل المعبد وحين لجأت القافلة إلى الظل اختفت السحابة.

وكان هذا الراهب يعلم تمام العلم مما بقى لديه من كتب الأقدمين أن نبى آخر الزمان قد قربت بعثته، وكان هو ضمن من كانوا ينتظرون مقدمه، بفارغ الصبر، ويعرفون شيئا من صفاته، ومكان ميلاده، وإرهاصات مقدمه وأن له علاقة وثيقة بالصحراء، وعلاقة حميمة بالحمد، وأنه صاحب الشريعة الخاتمة، وأنه سوف يكون محاربا منتصرا بإذن الله.

وكان أهل الكتاب فى هذا الزمان قلة قليلة مضطهدة، وكان الكفر بالله أو الشرك به (سبحانه) وعبادة الأوثان هى الأمور السائدة فى المجتمعات العربية والدولية، فقد كانت أصول الرسالات السماوية السابقة قد ضاعت أو تعرضت لقدر من التحريف، وتعرضت عقائد الناس إلى قدر كبير من التزييف فامتلأت الأرض جورا وظلما، وكان هذا الراهب ضمن من يتشوقون إلى مقدم الرسول الخاتم، وحينما رأى السحابة تظلل القافلة فى يوم صحو أدرك بحسه أن هذا أمر غير عادى، فترقب وصول تلك القافلة بشغف كبير، وسعد سعادة غامرة بأنها حطّت تحت معبده - وعلى غير عادته - قرر دعوة أفراد تلك القافلة إلى الطعام ليستكشف من فيها، ويعرف سر الكرامة التى جعلت السحابة تظللها فى يوم صحو نترك الراهب مكانه، ليأمر بإعداد طعام لأفراد القافلة ثم أرسل إليهم رسولا يدعوهم إلى تناول الطعام ، وعند وصولهم سألهم هل تخلف منكم أحد؟ قالوا : نعم تخلف منا غلام تركناه عند متاعنا لحداثة سنه، فقال الراهب: ادعوه فليحضر هذا الطعام، فقام بعضهم بإحضاره فأكلوا ثم تفرق القوم وبقى الصبى محمد بن عبد الله مع الراهب فبادره بالسؤال قائلا : يا غلام، **أسألك بحق اللات والعزى أن تخبرنى عما أسألك عنه.** وأجاب الصبى : **لا تسألنى باللات والعزى شيئا، فوالله ما أبغضت شيئا قط مثل بغضهما.**

قال (بحيرى) : **أسألك إذن بالله؟**

قال الصبى : سل ما بدا لك. فراح الراهب يسأله عن أسرته، ومكانته فى قومه. وأحلامه، وآرائه. بعد ذلك نهض الراهب إلى أبى طالب فسأله : ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: إنه ابنى.

قال الراهب : ما ينبغى أن يكون أبوه حيا. قال أبو طالب إنه ابن أخى، مات أبوه وأمه حبلى به. قال (بحيرى) صدقت : ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود فسوف يكون له شأن.

وواضح هذا الكلام أن (بحيرى) كان لديه علم بما بقى من الحق عند أهل الكتاب من بشريات بمقدم الرسول الخاتم وصفته. فقد روى ابن إسحاق عن عاصم بن قتادة عن أشياخ من قومه أنهم قالوا فى اليهود :

«كنا قد علوناهم ظهرا فى الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون لنا : إن نبيا يبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله (ﷺ) من قريش فاتبعناه، وكفروا به، وفى ذلك نزل قوله (تعالى) :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . (البقرة : ٨٩)

عادت قافلة أبى طالب إلى مكة، وعاد معها محمد بن عبدالله (ﷺ) إلى انفراده بنفسه، وعُزلته عن قومه، وعمت شهرته بينهم بالصادق الأمين، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه، وحال بينه وبين متع الشباب البريئة، ولهوه العادى، واصطفاه إلى عزلة يعبد الله - تعالى - فيها، ويتقرب إليه بفطرته النورانية الصافية التى وهبه الله (سبحانه وتعالى) إياها.

سابعا : رحلته الثانية إلى بلاد الشام :

فى سنة ٥٩٥م (٢٥ قبل الهجرة) خرج (ﷺ) فى تجارة للسيدة خديجة بنت خويلد (رضى الله عنها) إلى بلاد الشام،

وكـان ذلك بعد أن مـات عنـهـا زوجـهـا، وطمـع فـيـهـا الطـامعـون لثرائها، وكانت تبحث عن رجل تستأمنه على الخروج بمالها للمتاجرة فيه، وكان قد وصل إلى سمعها ما اشتهر به محمد بن عبد الله (ﷺ) من الصدق والأمانة فأرسلت إليه ليقوم بهذه المهمة، فخرج بمالها وكانت هذه هى رحلته الثانية إلى بلاد الشـام، وبـارك الـلـه فـى تجارتـه فـعـاد إلى مـكـة المكرمـة بربح مضـاعف للسيدة خديجـة التـى زاد إعـجـابـهـا بصدقه وأمـانتـه فعرضت عليه الزواج بها وقد كان فى الخامسة والعشرين من عمره ولم يكن قد تزوج بعد، وكانت هى فى الأربعين من عمرها وكانت قد تزوجت مرتين من قبل، ولكنها كانت ذات حسب ونسب ومنزلة عالية وشرف كبير بين أهل مكة، فقبل (ﷺ) عرضها، ووقف عمه أبو طالب خطيبا فى حفل زواجه فقال :

«إن محمدا لايوزن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلا، وفضلا وعقلاً، وإن كان فى المال فقيرا، فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة». وقد أتاح له زواجه (ﷺ) من السيدة خديجة - رضى الله عنها - فرصة هائلة للتعبد والتأمل فكان (ﷺ) كثير الانفراد بنفسه فى غار حراء الذى كان يمضى فيه أوقاتا طويلة.

ثامنا: بعثته الشريفة (ﷺ) :

فى سن الأربعين (أى فى حوالى سنة ٦١٠م) جاءه الوحى (ﷺ) فى غار حراء، حين فوجئ بجبريل (عليه السلام) يقف على باب الغار، ثم أقبل عليه واحتضنه بشدة قائلا : (اقرأ) قال (ﷺ) ما أنا بقارئ، فعاد الملك يضمه إليه ضما شديدا ثم أطلقه وهو يقول له : (اقرأ)، وعاد (ﷺ) يرد : ما أنا بقارئ، ويعود

جبريل إلى احتضانه والطلب إليه أن اقرأ، ويجيب (ﷺ) : ماذا أقرأ ؟ فتلا عليه جبريل (عليه السلام) أول آيات أنزلت من آخر رسالات السماء إلى أهل الأرض، وفيها قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

(العلق : ١ - ٥)

عاد رسول الله (ﷺ) إلى بيته فزعا يرتجف، وقال لزوجته السيدة خديجة (رضى الله عنها) : «زملونى، زملونى»، وحدثها بما رأى قائلا: «**لقد خشيت على نفسى**». فردت عليه بقولها : «**أبشر، فوالله لايخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الدهر**».

ثم انطلقت به السيدة خديجة إلى ابن عم لها يدعى «ورقة بن نوفل»، وكان عالما حنيفيا على ملة إبراهيم (عليه السلام)، يعرف جوانب مما بقى من الحق ومنها البشارات بالرسول الخاتم، وكان شيخا طاعنا فى السن قد كف بصره لشيخوخته.

وطلبت السيدة خديجة من رسول الله (ﷺ) أن يروى لابن عمها ما حدث معه بالتفصيل، فأدرك «ورقة» بعلمه أنه أمام النبى الخاتم والرسول الخاتم الذى بشرت بمقدمه كل الرسالات السماوية السابقة، وما بقى منها من الحق فقال : «**والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة وإن هذا لهو الناموس الذى أنزله الله على موسى، يا ليتنى فيها جذع، يا ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك**».

فتساءل رسول الله (ﷺ): «أو مخرجي هم؟» قال ورقة: «**نعم. لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك لأنصرنك نصرا مؤزرا**». وقد أدركه ذلك اليوم وكان من أوائل من أسلم على يدى رسول الله (ﷺ)، ثم مات على الإسلام فى السنة الرابعة للبعثة المحمدية الشريفة.

عاش رسول الله (ﷺ) مع زوجته السيدة خديجة بنت خويلد أربعًا وعشرين سنة وبضعة أشهر إلى أن توفاها الله (سبحانه وتعالى) وقد تجاوزت الرابعة والستين من عمرها، ولم يصل هو بعد (ﷺ) الخمسين من عمره الشريف، وكان قد رزقه الله (تعالى) منها: بالقاسم، ثم زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة وولد له فى الإسلام عبدالله، وكان أول من توفى من أولاده (ﷺ) القاسم ثم عبدالله.

بعد تكرر نزول الوحى وتثبت الرسول (ﷺ) من اصطفائه لتبليغ رسالة الله (تعالى) إلى الناس بدأت الدعوة إلى دين الله الخاتم سرا واستمرت هكذا لثلاث سنوات، وكان أول من آمن بنبوة ورسالة سيدنا محمد (ﷺ) من النساء السيدة خديجة (عليها من الله الرضوان) وتبعها من الغلمان على بن أبى طالب (وهو يومئذ ابن عشر سنوات)، ومن الرجال أبو بكر وعثمان بن عفان، وورقة بن نوفل، وسعيد بن العاص، وزيد بن ثابت بن حارثة، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وأبو ذر الغفارى، وعمر بن عنبسة، وكانوا كلهم من أشراف قريش ومن أعلاهم نسبا، وكان الرسول (ﷺ) يدعو سرا من يأنس فيهم الإجابة حتى بلغ عدد المسلمين

قرابة الأربعين كانوا يتعبدون الله (تعالى) خفية فى دار الأرقم.

ثم بعد مضى هذه السنوات الثلاث فى الدعوة السرية نزل قوله (تعالى):

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ . (الحجر. ٩٤)

وقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ . (الشعراء: ٢١٤)

وهكذا جاء الأمر الإلهى بإعلان الإسلام فخرج رسول الله (ﷺ) وصعد على جبل الصفا ونادى أهل مكة بأعلى صوته بطنا بطنا وقبيلة قبيلة فلما اجتمعوا له سألهم قائلا : «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى»؟ قالوا نعم. فوالله ما جربنا عليك كذبا قط.

قال (ﷺ) : «**فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد**».

فرد عليه عمه أبو لهب قائلا : تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا أما دعوتنا إلا لهذا؟

فنزل قوله (تعالى) : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ . (المسد: ١)

وبدأت المواجهة بين رسول الله (ﷺ) وكفار قريش الذين اشتد اضطهادهم له ومطاردتهم وتعذيبهم لأتباعه فاستشهدت سمية أم عمار بن ياسر الذى عذب ووالده ورفاقه عذابا فوق الطاقة.

ولما لم يجدهم ذلك نفعا أرسلت قريش عتبة بن ربيعة ليفاوض رسول الله (ﷺ) فقال له عارضاً المال، والسيادة، والملك ، والعلاج والتطبيب فى مقابل ترك دعوته، فرد عليه رسول الله (ﷺ) بآيات من سورة فصلت أرعبت عتبة الذى أسرع منصرفا إلى قومه.

ولما اشتدت المواجهة ذهب وفد من قريش إلى أبى طالب يشكون رسول الله (ﷺ) إليه ويطلبون منه أن يسكته أو أن يخلى

بينهم وبينه، فبعث إليه عمه وقال له : «**يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى وذكروك بما تصنع معهم فابق عَلَىَّ وعَلَى نفسك، ولاتحمِّلنى من الأمر ما لا أطيق**» فقال له (ﷺ) :

«**يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه**».

فقال له عمه أبو طالب : «**اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبدا**».

تاسعا: هجرة أصحابه (ﷺ) إلى الحبشة:

يئست قريش من أبى طالب فبدأت فى مناهضة رسول الله (ﷺ) بالتضييق عليه فى كل أمر، وبتعذيب بعض الذين آمنوا به من أمثال (عمار بن ياسر وزوجه سمية وأبويه، وبلال، وخباب بن الأرت... وغيرهم) فأذن رسول الله (ﷺ) لنفر من أصحابه (رضوان الله عليهم) بالخروج إلى الحبشة قائلا : «**إن لها ملكا لايظلم عنده أحد**». فهاجروا إلى الحبشة فى هجرتين متعاقبتين كانت الأولى منهما فى السنة الخامسة بعد بدء نزول الوحى، خرج فيها وفد من ستة عشر مسلما ومسلمة إلى الحبشة، ثم تلاهم ثلاثة وثمانون (٨٣) رجلا، وتسع عشرة (١٩) امرأة فى الهجرة الثانية، وتعقبتهم قريش، وطلبوا من النجاشى تسليمهم إليهم لتأديبهم، وأرسلوا إليه بهدية يرشونه بها، ولكن عند سؤاله المهاجرين عن دينهم وعن عقيدتهم فى عيسى ابن مريم قالوا : **هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وروح منه، فأخذ النجاشى عودا صغيرًا من الأرض وقال: لم يزد عيسى على ما قلتموه قدر هذا العود، اذهبوا فأنتم آمنون، ورد**

إلى قريش هديتهم، فقد كان يؤمن ببشرية المسيح (عليه السلام) رغم إيمان بطاركة كنيسته بغير ذلك.

عاشرًا: حادثة انشقاق القمر:

بعد بعثة المصطفى (ﷺ) بحوالى الثمانى سنوات (أى بحدود سنة ٦١٨م) سأله أهل مكة أن يريهم آية مادية ملموسة تشهد له بالنبوة وبالرسالة فأراهم القمر وقد إنشق إلى فلقتين حتى رأوا جبل حراء بينهما، فقال (ﷺ): «إشهدوا...!!» والروايات عن إنشقاق القمر ورؤية جم غفير من أهل مكة ومن غيرهم له هى أخبار متواترة تتفق كلها فى إثبات وقوع هذه الحادثة، وفى تحديد مكان وزمان وقوعها، والهيئة التى وقعت بها، وعلى ذلك فالحادثة ثابتة بتواتر رواتها، وهى حادثة واجه بها القرآن الكريم الكفار والمشركين فى زمن وقوعها كما يواجههم بها فى زمن ريادة الفضاء والوصول إلى القمر الذى نعيش أيامه، وفى كل زمن قادم إلى قيام الساعة، ولم يُرْوَ عن أحد من كفار قريش ومشركيهم تكذيب وقوعها ، فلابد وأن تكون قد وقعت فعلا بصورة يتعذر على المعاندين إنكارها ولو على سبيل المراء الذى كان من شأنهم دوما فى مواجهة كل آية من الآيات التى جاءهم رسول الله (ﷺ) بها، لو وجدوا منفذا لذلك، لأن كل ما روى عن كفار ومشركى قريش هو قولهم: «سحرنا محمد»، ورد عليهم بعض عقلائهم بأن السحر لا يشمل كل الناس، فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يمكن أن يكون قد سحر الركبان المسافرة إلى مكة وهم على بعد مئات الأميال عنها، والذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه بمجرد وصولهم إلى هذا البلد الحرام.

وقد رويت واقعة انشقاق القمر عن طريق عدد كبير من صحابة رسول الله (ﷺ) منهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وجبير بن مطعم، وعبد الله بن مسعود (رضى الله تبارك وتعالى عنا وعنهم أجمعين).

* فقد روى الإمام البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) قوله: «انشق القمر على عهد رسول الله (ﷺ) فقالت قريش: هذا سحر ابن أبى كبشة؛ قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم؛ قال: فجاء السفار فقالوا ذلك».

والحديث رواه كذلك كل من الإمام أحمد فى مسنده، والإمام أبو داود فى سننه، والإمام البيهقى فى سننه، وغيرهم من رجال الحديث.

وفى لفظ آخر جاء الحديث بالصياغة التالية: «... انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به؛ قال: فسئل السفار، وكانوا قد قدموا من كل جهة، فقالوا: رأينا، فأنزل الله (عز وجل):

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

(القمر: ١-٥)

وروى عن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) كذلك قوله: «انشق القمر على عهد رسول الله (ﷺ) فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله (ﷺ): «اشهدوا».

وتعليقا على هذه الواقعة ذكر ابن كثير (رحمه الله) ما نصه: «... وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن إنشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى (ﷺ)، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات».

وجاء فى تفسير الجلالين ما نقتطف منه قولهما: (وانشق القمر) انفلق فلقتين على جبلى أبى قبيس وقعيقعان، آية له (ﷺ)، وقد سئلها (أى: سأله أهل مكة أن يريهم آية فأراهم إنشقاق القمر) فقال: «اشهدوا». رواه الشيخان).

وعلى الرغم من ثبوت واقعة إنشقاق القمر بالنص القرآنى، وبالروايات المتواترة التى تحدد مكان الحادث، وزمانه، وهيأته إلا أن بعض المفسرين يراه ـ كما يرى كل الخوارق التى حدثت لرسول الله (ﷺ) والتى شهدت بها روايات صحيحة لعدد من كبار الصحابة (عليهم رضوان الله أجمعين) ـ يروا كل ذلك إكراما من الله (تعالى) لخاتم أنبيائه ورسله، وليست دليلا على إثبات صدق رسالته، وذلك إستنادا إلى قول الحق (تبارك وتعالى) فى مقام آخر:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ...﴾.

(الإسراء: ٥٩)

والاستشهاد فى غير موضعه لاختلاف السياق القرآنى فى الحالتين.

* كذلك روى كل من الإمامين البخارى وأحمد عن أنس بن مالك (رضى الله عنه) أنه قال: «أن أهل مكة سألوا رسول الله (ﷺ) أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر».

* وروى الإمام البيهقى، كما أخرج كل من الأئمة البخارى ومسلم والترمذى (جزاهم الله خيرا) عن عبد الله بن عمر (رضى الله عنهما) قوله:

«... وقد كان ذلك على عهد رسول الله (ﷺ)، انشق فلقتين، فلقه من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبى (ﷺ): «اللهم اشهد».

* وروى كل من الإمامين البخارى ومسلم (رحمهما الله) عن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) قوله: «انشق القمر فى زمان النبى (ﷺ). كذلك روى ابن جرير عن ابن عباس قوله: «... قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه».

* وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم (رضى الله عنه) قوله: «انشق القمر على عهد رسول الله (ﷺ) فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، وقال غيرهم: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم».

* وروى الإمام ليث عن مجاهد (رضى الله عنه) قوله: «انشق القمر على عهد رسول الله (ﷺ) فصار فرقتين، فقال النبى (ﷺ) لأبى بكر (رضى الله عنه): اشهد يا أبا بكر، فقال الكافرون : «سحر القمر حتى انشق».

* وفى إحدى المخطوطات الهندية القديمة والمحفوظة فى مكتبة المركز الهندى بمدينة لندن (تحت رقم ٢٨٠٧/ ١٥٢ - ١٧٣) ذكر المفكر الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور محمد حميد الله (رحمه الله رحمة واسعة جزاء ما قدم) فى كتابه المعنون «محمد رسول الله» أن أحد ملوك ماليبار (وهى إحدى مقاطعات جنوب غربى الهند) وكان اسمه شاكراواتى فارماس (Chakrawati Farmas) شاهد انشقاق القمر على عهد رسول الله (ﷺ) وأخذ يحدث الناس بذلك.

وحدث أن مر عدد من التجار المسلمين بولاية ماليبار، وهم فى طريقهم إلى الصين، وسمعوا حديث الملك «شاكراواتى فارماس» عن انشقاق القمر فأخبروه أنهم أيضا قد رأوا ذلك، وأفهموه أن انشقاق القمر كان معجزة أجراها ربنا (تبارك وتعالى) تأييدا لخاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) فى مواجهة تكذيب مشركى قريش لنبوته ولرسالته. فأمر الملك بتنصيب ابنه وولى عهده قائما بأعمال مملكة ماليبار وتوجه إلى الجزيرة العربية لمقابلة المصطفى (ﷺ) وبالفعل وصل الملك الماليبارى إلى مكة المكرمة وأعلن إسلامه أمام رسول الله (ﷺ)، وتعلم ركائز الدين الإسلامى وأفل راجعا، ولكن شاءت إرادة الله (تعالى) أن ينتهى أجله قبل مغادرته أرض الجزيرة العربية فمات ودفن فى أرض ظفار، وحين وصل الخبر إلى ماليبار كان ذلك حافزا لقبول أهلها الإسلام دينا زرافات ووحدانا.

شاهد من عصرنا على انشقاق القمر

عَقِبَ محاضرة لى عن «الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة» ألقيت باللغة الإنجليزية فى كلية الطب بجامعة كاردف عاصمة مقاطعة ويلز فى غربى الجزر البريطانية، دار حوار ممتع مع جمهور الحضور من المسلمين وغير المسلمين، ومن جملة الأسئلة التى أثيرت من أحد الحضور سؤال عن واقعة انشقاق القمر كما جاء ذكرها فى مطلع سورة القمر، وهل تمثل لمحة من لمحات الإعجاز العلمى فى كتاب الله؟

وعلى الفور أجبت بأنها معجزة من المعجزات الحسية العديدة التى حدثت تأييدا لرسول الله (ﷺ) فى مواجهة تكذيب كفار قريش

لبعثته الشريفة، وأن المعجزات هى خوارق للسنن والقوانين الحاكمة للكون، فلا يستطيع العلم الكسبى تفسيرها، ولو استطاع تفسيرها ما كانت معجزة وأضفت أن المعجزات الحسية التى جاء ذكرها فى كتاب الله، أو فى سنة رسوله (ﷺ) هى حجة على من شاهدها من الخلق، وبما أننا لم نشاهدها فهى ليست بحجة علينا، ولكننا نؤمن بوقوعها لورود ذكرها فى كتاب الله وفى الأقوال الصحيحة المنسوبة إلى رسول الله (ﷺ) وإلى عدد من صحابته الكرام، وكتاب الله كله حق مطلق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ورسول الله (ﷺ) يصفه القرآن الكريم بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (النجم: ٣ ـ ٥).

وحادثة انشقاق القمر جاء ذكرها فى مطلع «سورة القمر»، على أنها قد وقعت بالفعل تحديا لكفار ومشركى قريش، وتأييدا لرسول الله (ﷺ) فى مواجهة تكذيبهم لنبوته ولرسالته، ولم يُرْوَ عن أحد منهم تكذيب تلك الواقعة التى نسبوها تارة لتعرضهم هم لعملية سحر، وتارة أخرى لتعرض القمر للسحر حتى هيئ لهم أنه قد انشق بالفعل مما يفهم منه تأييدهم لوقوع تلك المعجزة، وإن حاولوا التقليل من شأنها بنسبتها إلى السحر ....!!، ثم عاودوا إلى نفى فرية السحر بأنفسهم وذلك بقول نفر من عقلائهم ـ كما جاء فى روايات الواقعة ـ لئن كان قد سحرنا فإنه لا يمكن أن يكون قد سحر معنا المسافرين خارج مكة؛ فتسارعوا إلى مداخل تلك المدينة المقدسة فى انتظار الركبان القادمين من السفر، وعند سؤالهم شهدوا بأنهم فى نفس الليلة التى شاهد فيها

أهل مكة تلك الواقعة رأوا هم كذلك إنشقاق القمر إلى فلقتين تباعدتا عن بعضهما البعض لعدة ساعات ثم التحمتا، فآمن من آمن وكفر من كفر. ولذلك تقول الآيات فى مطلع سورة القمر:

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

(القمر: ١ ـ ٥)

كذلك روى حادثة إنشقاق القمر بصورة متواترة عدد غير قليل من كبار صحابة رسول الله (ﷺ) من أمثال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك ، وجبير بن مطعم (رضى الله تبارك وتعالى عنا وعنهم أجمعين)، ولا يمكن أن تجتمع كلمة هؤلاء جميعا على باطل، وهم من أهل التقى والورع (ولا نزكى على الله أحدا) وقد حقق أحاديث انشقاق القمر عدد كبير من أئمة علماء الحديث فى مقدمتهم البخارى، ومسلم، وأبو داود، الترمذى، والنسائى، وابن ماجة، وأحمد، والبيهقى، وغيرهم كثير مما يجزم بوقوعها، ومن هنا فإننا نرفض أقوال بعض المفسرين بأن الحادثة من إرهاصات الآخرة انطلاقا من استهلال السورة بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ؛ وهؤلاء قد لا يعلمون أن عمر الأرض التى نحيا عليها يقدر بحوالى الخمسة آلاف مليون سنة (على أقل تقدير)، وأن عمر مادة كل من الأرض والكون المحيط بها يقدر بحوالى العشرة آلاف مليون إلى الأربعة عشرة ألف مليون سنة (على أقل تقدير)، وأن بعثة المصطفى (ﷺ) كانت منذ

أربعة عشر قرنا فقط، ونسبة هذا التاريخ إلى بلايين السنين التى مضت من عمر كل من الأرض والكون يؤكد على قرب نهاية العالم ولذلك يروى عنه (عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام) قوله الشريف: «**بعثت أنا والساعة هكذا**» وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى. وهى قولة حق خالص، وإعجاز علمى صادق لأنه لم يكن لأحد فى زمانه (ﷺ) أدنى تصور عن قدم الكون إلى مثل تلك الآماد الموغلة فى القدم؛ وهذا كاف للرد على الذين قالوا بأن فى استهلال «سورة القمر» بالقرار الإلهى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ إيحاء بأن انشقاق القمر مرتبط باقتراب الساعة، بمعنى أنها إذا جاءت انشق القمر، لأن المعجزة قد وقعت فعلا على زمن رسول الله (ﷺ). وقد يشير إلى ذلك وجود شق كبير بالقرب من القطب الجنوبى للقمر على الوجه الذى لا يرى من فوق سطح الأرض يزيد طوله عن ٢٢٥ كيلو متر ويدعمه عدم تماثل نصفى القمر الحالى، ويؤكده وصف القرآن الكريم لنهاية القمر بابتلاع الشمس له لا بانشقاقه وذلك كما جاء فى قوله (تعالى):

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

(القيامة: ٧ ـ ٩)

ويأتى العلم فى قمة من قممه مؤكدًا على تباعد القمر عن الأرض بمعدل ثلاث سنتيمترات فى كل سنة مما يشير إلى حتمية دخوله فى مجال جاذبية الشمس فتبتلعه، وإن كان ذلك ـ كغيره من إرهاصات الآخرة سوف يَتِمُّ بالأمر الإلهى: «كن فيكون»، وليس بالسنن الدنيوية التى يبقيها لنا ربنا (تبارك وتعالى) لإثبات إمكانية وقوع الآخرة؛ بل حتميتها.

وبعد فراغي من الإجابة على سؤال السائل الكريم وقف بريطاني مسلم عرف نفسه باسم «داود موسى بيدكوك» (David Musa Pidcock) وبمنصبه كرئيس للحزب الإسلامي البريطاني، واستأذن في إمكانية إضافة شيء إلى ما قلته في إجابتي فأذنت له بذلك فقال: «إن هذه الآية كانت مدخلي لقبول الإسلام دينا، فقد كنت في مدرسة كنسية وأثناء دراستي شغفت بعلم مقارنة الأديان، وأهداني صديق مسلم نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم فأخذتها منه شاكرا وتوجهت بها إلى مسكني، وعند تصفحها لأول مرة فوجئت بسورة القمر فقرأت: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ثم توقفت متسائلا: كيف يمكن للقمر أن ينشق ثم يعود ليلتحم ؟ وما هي القوة القادرة على إعادته إلى سيرته الأولى ؟ فتوقفت عن القراءة وكأن هذه الآية الكريمة قد صدتني عن الاستمرار في ذلك.. !!

ولكن لعلم الله (تعالى) بمدى إخلاصي في البحث عن الحقيقة أجلسني أمام التلفاز لأشاهد حوارا بين مذيع بريطاني يعمل بقناة التليفزيون البريطاني (B.B.C) واسمه جيمس بيرك (James Burck) وثلاثا من علماء الفضاء الأمريكيين، وجرى عتاب في هذا الحوار من المذيع للعلماء على الإسراف المخل في الإنفاق على رحلات الفضاء في الوقت الذي تتعرض جماعات بشرية عديدة لأخطار المجاعات، والأمراض، وانتشار الأمية بين البالغين، ولمختلف صور التخلف العمراني والعلمي والتقني.

ووقف علماء الفضاء مدافعين عن مهنتهم بأن الإنفاق على رحلات الفضاء ليس مالا مهدراً لأنه يعين على تطوير تقنيات

تطبق فى مختلف المجالات الطبية والصناعية والزراعية، ويمكن أن تعود بمردودات مالية وعلمية كبيرة. وفى غمرة هذا الحوار جاء ذكر رحلة إنزال رجل على سطح القمر على أنها كانت من أكثر هذه الرحلات كلفة فقد تكلفت عدة عشرات المليارات من الدولارات.

فسأل المحاور: هل كان كل ذلك لمجرد وضع العلم الأمريكى على سطح القمر ؟ وجاءت الإجابة بالنفى، وبأن الهدف كان دراسة علمية لأقرب أجرام السماء إلينا؛ فسأل المحاور: ألم يكن من الأجدى إنفاق تلك المبالغ الطائلة على عمارة الأرض ؟ وجاء الجواب بأن الرحلة أوصلتنا إلى حقيقة علمية لو أنفقنا أضعاف هذا المبلغ لإقناع الناس بها ما صدقنا أحد ... !!

فسأل المحاور: وما هذه الحقيقة العلمية ؟ فكان الجواب : أن هذا القمر كان قد إنشق فى يوم من الأيام ثم التحم بدليل وجود تمزقات طويلة جدا وغائرة أى عميقة فى جسم القمر، تتراوح أعماقها بين عدة مئات من الأمتار إلى أكثر من الكيلومتر، ويتراوح عرضها بين نصف كيلو متر وخمسة كيلو مترات وتمتد لمئات من الكيلو مترات فى خطوط مستقيمة أو متعرجة. وتمر هذه الشقوق الطولية الهائلة بالعديد من الحفر التى يزيد عمق الواحدة منها عن تسعة كيلو مترات، ويزيد قطرها على الألف كيلو متر، ومن أمثلتها الحفرة العميقة المعروفة باسم «بحر الشرق (Mare Orientalis). وقد فسرت هذه الحفرة العميقة باصطدام أجرام سماوية بحجم الكويكبات (Impact of asteroid - sized objects) أما الشقوق والتى تعرف باسم «شقوق القمر» (Rimae or Lunar Rilles) فقد فسرت على

أنـهـا شــروخ نـاتجـة عـن الشـد الجـانبـى (Tensional Cracks) أو متداخلات نـارية علـى هيئة الجدد القـاطعة، ولكن أمثـال هذه الأشكال على الأرض لا تصل إلى تلك الأعماق الغائرة، ومن هنا فقد فسرت على أنـهـا من آثار إنشقاق القمر وإعادة التحامه.

يقول السيد «پيدكوك» حين سمعت هذا الكلام انتفضت من فوق الكرسى الذى كنت أجلس عليه أمام التلفاز، وتساءلت: معجزة تحدث لهذا النبى الخاتم من قبل ألف وأربعمائة سنة يثبتها العلم فى زمن العلم والتقنية الذى نعيشه بهذه البساطة، وبهذا الوضوح الذى لا يخفى على عالم فى مجال علم الفلك اليوم، فلا بد وأن يكون القرآن حقا مطلقا وصادقا صدقا كاملا فى كل خبر جاء به؛ وعلى الفور عاودت القراءة فى ترجمة معانى القرآن الكريم، وكانت هذه الآية التى صدتنى فى بادئ الأمر عن الاستمرار فى قراءة هذا الكتاب المجيد هى مدخلى لقبول الإسلام دينا.

ولا أستطيع أن أصف لكم وقع هذه الكلمات ؛ ووقع النبرة الصادقة التى قيلت بها على كافة الحضور من المسلمين وغير المسلمين فقد هزت القلوب والعقول، وأثارت المشاعر والأفكار، ولم أجد ما أقوله أبلغ أن أردد قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)﴾ . (فصلت: ٥٣)

حادى عشر: حصار المسلمين فى شعب بنى هاشم:

فى هذه الأثناء أسلم كل من حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب فقويت بهما شوكة المسلمين وبدأت قريش تحس بخطر

ذلك، فاتفق كفارها ومشركوها على مقاطعة المسلمين مقاطعة اقتصادية واجتماعية كاملة فلا يبيعونهم ولايشترون منهم، ولا يزوجونهم، ولايتزوجون منهم، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة، واستمر الحصار لشِعْبِ بني هاشم ثلاث سنوات حتى اضطر المسلمون إلى أكل ورق الشجر، فقام المطعم بن عدى ومعه نفر من أهل المروءة لشق الصحيفة الظالمة ونقضها فوجدوا الأَرضة قد أكلتها كلها إلا جملة «باسمك اللهم».ولم ينقذ بني هاشم في حصارهم هذا إلا مال أثرياء المسلمين من أمثال السيدة خديجة وأبي بكر (عليهما رضوان الله).

ثاني عشر: وفاة كل من زوجته وعمه (ﷺ):

في العام العاشر من بعثة المصطفى (ﷺ) أي في حدود السنة الثانية قبل الهجرة (الموافقة سنة ٦٢٠م) مات أبو طالب دون أن يسلم على الرغم من جهود رسول الله (ﷺ) معه لينطق بالشهادتين وهو على فراش الموت، ومن بعده توفيت السيدة خديجة (رضي الله عنها) بعد زواج دام أربعًا وعشرين سنة وبضعة أشهر فعُرف ذلك العام بعام الحزن، وقد أغرى موتهما كفار قريش برسول الله (ﷺ) فجاوزوا كل الحدود في إيذائه حتى اضطر إلى الخروج إلى الطائف يلتمس النصرة من قبيلة ثقيف، فلم يكونوا في ذلك أفضل من كفار قريش. وتقع الطائف على بعد ٧٠كم من مكة المكرمة في صعود مستمر، سارها المصطفى (ﷺ) على قدميه ذهابا وإيابا في طرق شديد الوعورة.

ثالث عشر: لجوء النبى (ﷺ) إلى الطائف:

فى الطائف مكث رسول الله (ﷺ) عشرة أيام يتردد على الأسواق والبيوت والطرقات داعيا الناس إلى دين الله بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوى: «أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» فلم يؤمن به أحد، وزادت ثقيف فوق تكذيبها لرسول الله (ﷺ)، سخريتها من دعوته وإغراءها سفهاء القوم به يسبونه، ويصيحون عليه (ﷺ) ويلقون إليه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين، فخرج إلى بستان فى الطريق من الطائف إلى مكة المكرمة للأخوين عتبة وشيبة ابنى ربيعة واستظل بظل شجرة وأخذ يناجى ربه قائلا :

«إلهى إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى مَنْ تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى، غير أن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبُك، أو أن يحل علىَّ سخطُك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه صاحبا البستان تحركت المروءة فى قلبيهما فدعوا غلاما لهما يقال له «عدَّاس» كان من بقايا أهل الكتاب فى العراق وقالا له : خذ قطفا من العنب فضعه فى طبق ثم اذهب به إلى هذا الرجل وقدمه له، ففعل «عداس» ما أمر به، فلما وصل إلى رسول الله (ﷺ) وقدم العنب إليه فقال (ﷺ) : «باسم الله» وتناول شيئا من العنب، فنظر إليه «عداس» كان قائلا : «والله

إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد» فقال له رسول الله (ﷺ): ومن أي البلاد أنت؟.. قال عداس : «من نينوى»، فقال رسول الله (ﷺ): «من بلد الرجل الصالح يونس بن متى؟» فقال عداس : وما يدريك عن يونس بن متى؟ فقال رسول الله (ﷺ) : «ذلك أخي، كان نبيا وأنا نبي» فأكب عداس على رسول الله (ﷺ) يقبل رأسه ويديه وقدميه.

وما أن رأى كل من عتبة وشيبة ابني ربيعة ما كان من عداس تجاه رسول الله (ﷺ) حتى قال أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك.

فلما عاد إليهما عداس قالا له : ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : ما في الأرض شيء خير من هذا لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي. فقالا له : ويحك ياعداس، لايصرفنك عن دينك.

عاد رسول الله (ﷺ) إلى مكة المكرمة وكفار قريش أشد الناس شماتة فيه، وعداء له فأكرمه الله (تعالى) برحلة الإسراء والمعراج، وأثناء الإسراء إلى بيت المقدس أطلعه جبريل (عليه السلام) على يثرب وأخبره بأنها سوف تكون مكان هجرته. كما أطلعه على جبل سيناء وأخبره أن في تلك البقعة المباركة كلم الله (تعالى) عبده موسى.

رابع عشر: حادثة الإسراء والمعراج :

في ١٧ ربيع أول من السنة السابقة على هجرة رسول الله (ﷺ) وقيل في ٢٧ رجب من نفس السنة (أي في حدود سنة ٦٢٠م) طاف رسول الله (ﷺ) حول الكعبة ليلاً وحيدا، ثم رجع

إلى بيته وآوى إلى فراشه، وعند منتصف الليل جاءه جبريل (عليه السلام) وأخبره بأن الله (تعالى) يدعوه إلى رحلة السماء.

وتحرك الركب الكريم على البراق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعندما دخلاه وقدم الملائكة إلى رسول الله (ﷺ) إناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فاختار اللبن وشربه فقيل له : **اخترت الفطرة، وسوف تختار أمتك الفطرة.**

وصلى رسول الله (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) ركعات فى بيت المقدس ومعه الملائكة الكرام ثم عرج به (ﷺ) عبر السماوات السبع حتى وصل إلى سدرة المنتهى، حيث شاهد جنة المأوى، وراح يصعد حتى وقف بين يدى رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما وسجد (ﷺ) قائلا : «**التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله**».

فقال الحق (عز وجل) : «**السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته**» وسبحت الملائكة لهذه التحية الربانية قائلة : «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**» وقد جعلت هذه التحية بداية التحيات التى يرددها المسلمون فى صلواتهم التى فرضها الله (تعالى)، عليهم فى هذا الموقف العظيم.

ولقد رأى رسول الله (ﷺ) فى هذه الرحلة المباركة من آيات ربه الكبرى ما لم يفصح القرآن الكريم عنه.

وبعد رحلة التكريم الإلهى تلك عاد رسول الله (ﷺ) إلى فراشه فوجده لايزال دافئا وجاء الصباح وحدث النبى (ﷺ) بأخبار رحلته فآمن به من آمن وكفر من كفر، وكان أول المصدقين أبو بكر بن قحافة ومن هنا سمى باسم «الصديق».

خامس عشر: بيعة العقبة الأولى:

كان رسول الله (ﷺ) يعرض دعوته على القبائل فى كل موسم من المواسم يدعوهم إلى الإسلام، ويطلب منهم مناصرته من أجل إقامة دين الله فى الأرض، وكفار قريش يحاولون صد الناس عنه بكل وسيلة ممكنة.

وفى موسم حج سنة (١١) من البعثة النبوية الشريفة (الموافق سنة ٦٢٠م) خرج رسول الله (ﷺ) إلى المشاعر فى طريقه إلى عرفات، وبينما هو عند العقبة إذ لقى رهطا من ستة رجال من قبيلة الخزرج ـ وهم من مجاورى اليهود فى المدينة، وكانوا قد سمعوا منهم عن نبى تبشر به كتبهم ـ فعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم شيئا من القرآن الكريم فأسلموا ووعدوا أن ينقلوا خبره إلى قومهم ويدعونهم إلى ما دعاهم إليه.

ثم لقيهم رسول الله (ﷺ) فى العام التالى فى موسم حج سنة (١٢) من البعثة النبوية الشريفة (الموافق يوليو سنة ٦٢١م) وكانوا اثنى عشر رجلا مسلما من الأوس والخزرج فبايعوه على الإسلام وسميت هذه باسم بيعة العقبة الأولى، فأرسل معهم رسول الله (ﷺ) مصعب بن عمير (رضى الله عنه) ليعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين فأسلم الكثير من أهل المدينة على يديه، حتى لم يبق بيت من بيوت أهل يثرب إلا وفيه من أسلم من الرجال والنساء والشبان. وقبل حلول موسم الحج للسنة الثالثة عشر من البعثة النبوية الشريفة عاد مصعب ابن عمير إلى مكة المكرمة يحمل إلى رسول الله (ﷺ) بشائر ذلك الفتح، ويقص عليه أخبار أهل المدينة وما فيها من الخير، وما لها من القوة والمنعة.

سادس عشر: بيعة العقبة الثانية (الكبرى):

في السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية الشريفة (يونيو سنة ٦٢٢م) جاء إلى رسول الله (ﷺ) في نفس المكان وفد من أهل المدينة مكون من ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين فبايعوا رسول الله (ﷺ) على الإسلام، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم، وتسربت أنباء هذه البيعة إلى قادة مشركي قريش فزادوا من ضغطهم على رسول الله (ﷺ) وعلى صحابته الكرام.

عند ذلك أمر رسول الله (ﷺ) مسلمي مكة بالهجرة إلى المدينة قائلا لهم : «**إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا فيها ودارًا تأمنون بها**»، فخرجوا إليها، وبقي رسول الله (ﷺ) بمكة ينتظر الإذن من الله (تعالى) بالهجرة إلى المدينة المنورة، ومعه كل من أبي بكر وعلي بن أبي طالب. وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن الرسول في الهجرة فيقول له (ﷺ) : «**لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا**». فيطمع أبو بكر أن يكون هو (ﷺ).

روى الإمام البخاري عن أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: قال رسول الله (ﷺ) للمسلمين: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين (وهما الحرتان) » فهاجر من هاجر قبل إلى المدينة، ورجع عامة من كان قد هاجر إلى أرض الحبشة للمدينة، وتجهز أبو بكر قِبَلَ المدينة، فقال له رسول الله (ﷺ): «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله (ﷺ) ليصحبه [١].

---

(١) صحيح البخاري .

سابع عشر: المؤامرة:

لما رأت قريش انتشار الإسلام إلى يثرب، وتكوين قاعدة من المسلمين هنالك اجتمع مجلس حربهم، وصناديد الكفر منهم فى دار الندوة، ليتدارسوا أمر رسول الله (ﷺ) وصحبه، وكان ذلك فى يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة (١٤) من البعثة النبوية الشريفة (الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م) وفى هذا الإجتماع تحدث أبو البحترى بن هشام فاقترح حبس رسول الله (ﷺ) فقال : احبسوه، وغلقوا عليه الأبواب، فقالوا: ليس هذا برأى، فقال الأسود بن عمر: نخرجه من بين أظهرنا، وننفيه من بلادنا، فإذا خرج فلا نبالى بعد ذلك إلى أين ذهب، وفى أى مكان حل، قالوا : ليس هذا برأى، ألم تروا حسن حديثه، وقوة منطقه، فإذا حل عند قوم لايلبث أن يستولى على نفوسهم، ويحل فى سويداء قلوبهم.

بعد ذلك تحدث أبو جهل قائلا : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبا وسيطًا فينا ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ويذهبون حيث محمد (ﷺ) فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل كلها، فلا يستطيع بنو عبد مناف قتال الجميع فرضوا منا بالعقل (أى فيقبلوا الدية) فعقلناه لهم، فاستحسن الحضور من الكفار والمشركين الرأى وقرروا إخراجه إلى حيز التنفيذ، وأخبر الله (سبحانه وتعالى) رسوله بتفاصيل المؤامرة وأنزل فيها قرآنا يتلى إلى يوم الدين يقول فيه ربنا (تبارك وتعالى):

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ . (الأنفال : ٣٠)

وفى الوقت المناسب أوحى الله (تعالى) إلى خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) أن يهاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بعد ٥٣ سنة من إقامته فى هذا البلد الحرام، وبدأ الرسول الخاتم (ﷺ) يعد العدة لذلك آخذا بأسباب النجاح كلها، فكتم أمره حتى عن صاحبه الذى علم من الله (تعالى) أنه سوف يرافقه فى هجرته.

ثامن عشر: الإعداد للهجرة فى أوائل شهر صفر سنة ١٤ من البعثة النبوية الشريفة (الموافق سبتمبر سنة ٦٢٢م):

طلب رسول الله (ﷺ) من أبى بكر أن يجهز لرحلة الهجرة، فابتاع راحلتين احتبسهما فى داره، وأخذ يعلفهما ويهيئهما لرحلة طويلة شاقة، وكان أبو بكر فى الجاهلية من أثرياء مكة فاقت ثروته أربعين ألف درهم أنفقها كلها فى سبيل الله، وعهد رسول الله (ﷺ) إلى على بن أبى طالب أن يبيت فى فراشه ليلة الهجرة، وأن يتسجى ببرده صرفا لأفئدة المتربصين.

تاسع عشر: هجرته (ﷺ):

فى فجر يوم الجمعة الموافق ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من البعثة النبوية الشريفة (الموافق ١٣ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م هاجر رسول الله (ﷺ) وصاحبه أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة انصياعا لأمر الله (تعالى) بعد ثلاث وخمسين سنة قضاها رسول الله (ﷺ) فى مكة.

وتروى أم المؤمنين السيدة عائشة (رضى الله عنها) فى حديثها عن الهجرة فتقول: «كان رسول الله (ﷺ) لايخطئ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى

إذا كان ذلك اليوم الذى أذن الله فيه لرسوله (ﷺ) بالهجرة والخروج من مكة من بين ظهرانى قومه. أتانا رسول الله (ﷺ) بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها، فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله (ﷺ) هذه الساعة إلا لأمر حدث، فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله (ﷺ) وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء، فقال رسول الله (ﷺ) :

«أخرج عنى من عندك» فقال أبو بكر : يا رسول الله إنما هما ابنتاى، وماذاك فداك أبى وأمى؟ فقال رسول الله (ﷺ) : «إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة» فقال أبو بكر : «الصحبة يا رسول الله»، قال (ﷺ) : «الصحبة».

قالت السيدة عائشة (رضى الله عنها) : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من شدة الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ. ثم قالت: قال أبو بكر لرسول الله (ﷺ): «يا رسول الله ، إن عندى ناقتين أعددتهما للخروج» [1].

وأعد أبو بكر دليلا ليصحبهما فى الرحلة الطويلة، وأمر ابنه عبدالله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى الليل بما يكون من أمر المشركين، وما يدبرون من كيد، ودرّب خادمه عامر ابن فهيرة مولى أبى بكر أن يرعى الغنم ليعفو على آثارهما إذا تحركا، ودرب ابنته أسماء (رضى الله عنهما) كيف تحمل لهما الزاد من الطعام والشراب وتتسلق به الجبال لإيصاله إليهما.

وفى عتمة ليلة الهجرة النبوية الشريفة طوق بيت النبى (ﷺ) أحد عشر من شباب كفار قريش يرصدون رسول الله (عليه

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

الصلاة والسلام) حتى نام، وعند منتصف الليل قام ليأمر على ابن أبى طالب (رضى الله عنه) بالنوم فى فراشه (ﷺ) قائلا: «**نم على فراشي، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكره منهم**»، ثم ترك رسول الله (ﷺ) عليّاً نائما فى فراشه، وخرج من داره بعد منتصف ليلة ٢٧ صفر سنة (١٤) من البعثة النبوية (الموافق ١٢/١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، والقوم محيطون بالدار إحاطة كاملة متوشحين سيوفهم ينتظرون تنفس الصبح ليعرف الجميع أن القبائل كلها قد اشتركت فى دم رسول الله (ﷺ) الذى خرج مخترقا صفوفهم دون أن يشعروا به، فقد أغشى الله أبصار شباب الكفار والمشركين المحيطين بالدار فلم يبصروه، وأخذ ينثر التراب على رءوسهم وهو يتلو:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾. (يس:٩)

ثم تحرك (ﷺ) للقاء بأبى بكر عند داره، وانطلقا فى رحلة الهجرة المباركة وكلما نظرشباب قريش المحيطين بدار رسول الله (ﷺ) من ثقب الباب أبصروا عليا نائما فى فراش رسول الله (ﷺ)، فظنوا الرسول لايزال نائما فاطمأنوا، حتى طلع الصبح، وخرج عليهم علىٌّ فتبين لهم أنهم قد باءوا بالفشل والخسران والندم.

خرج رسول الله (ﷺ) من داره قاصدا دار أبى بكر والليل لايزال مسدلاً ستوره، وعمدا إلى «غار ثور»، وهو غار إلى الجنوب من مكة المكرمة تمويهًا للكفار الذين يعلمون أنه (ﷺ) متجه إلى المدينة فى اتجاه الشمال. ووقف رسول الله (ﷺ) على الحزورة،

مستقبلاً الكعبة (وهى رابية صغيرة فى أحد أسواق مكة وقد دخلت فى المسجد بعد توسعته) يودع أحب بقاع الأرض إلى الله وإلى قلبه الشريف وهو يقول: «**والله إنى لأخرج منك وإنى لأعلم أنك أحب بلاد الله إلىَّ، وأنك أحب أرض الله إلى الله (عز وجل)، وأكرمها عليه وإنك خير بقعة على وجه الأرض وأحبها إلى الله (تعالى)، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت**».

ولم تكن هجرته (ﷺ) فرارا من الاضطهاد، ولا بحثا عن الأمن ولكن استعدادا للجهاد فى سبيل الله ومن أجل إقامة دولة الإسلام فى الأرض.

سار رسول الله (ﷺ) ومعه أبو بكر وقد حمل كل ما بقى له من ماله كله (خمسة إلى ستة آلاف درهم) دون أن يترك لأولاده منه شيئا على الإطلاق، وتحرَّكا فى اتجاه الجنوب من مكة المكرمة قاصدين غار ثور، على بعد حوالى العشرة كيلو مترات من مكة المكرمة فى اتجاه اليمن، وأبو بكر خائف على النبى (ﷺ) من أن تلمحه عين، فتارة يمشى أمامه، وتارة يأتى خلفه، وثالثة عن يمينه، ورابعة عن يساره، فسأله رسول الله (ﷺ) عن سبب ذلك، فقال أبو بكر:

يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك، وأذكر الطلب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك، لا آمن عليك.

وعند صعود الجبل وهو صعب المرتقى، كثير الأحجار، شامخ الارتفاع، لاحظ أبو بكر أن قدمى رسول الله (ﷺ) تقطران دما فأصر أن يحمله على كاهله، وصعد به الجبل بين الصخور الناتئة حتى وصل به إلى فم الغار فأنزله. ويصف أبو بكر (رضى الله عنه) قدميه حينئذ بقوله: **وقدماى كأنهما صفوان (أى صخر أملس).**

وهَمَّ النبى (ﷺ) بالدخول إلى الغار فسبقه أبو بكر قائلا : **لاتدخل يارسول الله حتى أدخله قبلك فإن كان فيه شىء أصابنى دونك**، ودخل أبو بكر أولا، ودار على جوانبه يتفحصها، فوجد فيها ثقوبا وفتحات، فشق ثوبه، وبدأ فى سد تلك الفتحات بقطع من ثوبه، وبقى ثقبان متجاوران فوضع عليهما قدميه وأقفلهما بهما خشية أن يكون بهما من الهوام ما يؤذى الرسول (ﷺ)، ثم نادى على رسول الله (ﷺ) فدخل، ووضع رأسه فى حجر أبى بكر ونام من شدة الإجهاد والتعب.

وفوجئ أبو بكر بحية فى أحد الجحرين اللذين سدهما بقدميه تلدغه فى إحدى القدمين فلم يحرك قدمه حتى لاتخرج الحية فتؤذى رسول الله (ﷺ)، ولكن الألم زاد عليه فبدأ يبكى من شدة الألم بكاء مكتوما، وسقطت دموعه على الرغم منه على وجه رسول الله (ﷺ) فتنبه واستيقظ قائلا : **ما لك يا أبا بكر**، فقال : **لدغت، فداك أبى وأمى**، فعالج رسول الله (ﷺ) مكان اللدغة فشفيت، وذهب ما يجد أبو بكر من الألم.

فلما جاء وقت الفجر، ووصل نوره إلى داخل الغار، لاحظ رسول الله (ﷺ) أن أبا بكر لا يلبس ثوبه الذى كان عليه وهما بالطريق إلى الغار فسأله عنه فأخبر بأنه مزقه ليسد به جحور الغار خوفا عليه من الهوام، فرفع النبى (ﷺ) يديه إلى السماء وقال : «**اللهم اجعل أبا بكر فى درجتى يوم القيامة**».

ومكث رسول الله (ﷺ) وصاحبه فى الغار ثلاث ليال تضليلا للمطاردين، وحتى يأمنا الطريق بعد ذلك إلى يثرب، وكان عبد الله بن أبى بكر يأتيهم بالأخبار ليلا ويبيت عندهما

حتى السحر، وأسماء تأتيهم بالطعام والشراب لتعود مع أخيها، ومولى أبى بكر عامر بن فهيرة يرعى خارج مكة على دربهما ليعفى على آثار الأقدام.

شمرت قريش عن سواعدها فى طلب رسول الله (ﷺ) وصاحبه، وجندت كل إمكاناتها فى سبيل ذلك وقررت إعطاء مكافأة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين كائنا ما كان، وحينئذ جدت الفرسان وقصاص الأثر فى الطلب، وانتشروا فى الجبال والوديان المحيطة بمكة المكرمة حتى وصل المقتفون للأثر إلى باب «غار ثور»، وقال أحدهم : **والله ماجاز مطلوبكم هذا المكان.**

وسمعه أبو بكر فبكى بكاءً مكتوما هامسا لرسول الله (ﷺ): **والله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، لو هلك أبو بكر لهلك فرد واحد، أما أنت يارسول الله لو هلكت لذهب الدين وهلكت الأمة والله ماعلى نفسى أبكى، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره،** فطمأنه رسول الله (ﷺ) قائلا : «**يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟ لاتحزن إن الله معنا**». ونزل فى ذلك قرآن يتلى إلى يوم الدين يقول فيه ربنا (تبارك وتعالى) :

﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (التوبة : ٤٠)

وجاء بعد ذلك مباشرة الأمر من الله (تعالى) بالجهاد:

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . (التوبة : ٤١)

وجاء قبل ذلك التحريض على الهجرة والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ . (التوبة : ٢٠)

وقد كان الله (سبحانه وتعالى) معهما حقًا؛ فأوحى إلى الشجرة أن تنحاز إلى فم الغار لتسده، وإلى العنكبوت أن ينسج نسيجا يطبق على فم الغار، وإلى الحمامتين أن تبيضا وتفرخا بالوصيد. مما جعل طغاة الكافرين ينبذون رأى مقتفى الأثر وهم يقولون: أنَّى لأحد أن يدخل هذا الغار وهذه شواهده، فعادوا أدراجهم بعد أن صرفهم الله (تعالى) بقدرته عن نبيه وصِدِّيقه.

ولما هدأ الطلب فى المغارات المحيطة بمكة المكرمة اتجهت أنظار الكافرين إلى ماهو أبعد من ذلك، فجاء عبدالله بن أبى بكر بالراحلتين والدليل عبد الله بن أريقط الليثى، وكان ماهرا بالطريق إلى المدينة، وكان على دين كفار قريش، ولكنه عاهدهما على ألا يخون الأمانة، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر (رضى الله عنهما)، بزاد رحلتهما، وخرج رسول الله (ﷺ) وصاحبه من الغار فى ليلة الإثنين، غرة ربيع الأول فى السنة الأولى للهجرة (الموافق ١٦ من سبتمبر سنة ٦٢٢م) فقدم أبو بكر للرسول (ﷺ) : أفضل الراحلتين ثم قال له: اركب، فداك أبى وأمى، فقال الرسول : إنى لا أركب بعيرا ليس لى، فقال أبو بكر : هى لك يارسول الله، قال: لا، ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به:

قال : كذا، قال : **قد أخذتها به**، قال: **هى لك يارسول الله**. فركبا وانطلقا، سالكين طريق الساحل. إمعانا فى تضليل المطاردين من الكافرين، على الرغم من أنه أطول من الطريق الجبلى بكثير، وصحبهما فى رحلة الهجرة كل من عامر بن فهيرة وعبد الله بن أريقط الدليل الماهر الذى أمعن فى الاتجاه بهم إلى الجنوب فى اتجاه اليمن، ثم إلى الغرب فى اتجاه الساحل ثم شمالا فى اتجاه المدينة المنورة.

عشرون: حادثة سراقة:

خرج الصاحبان فى طريقهما إلى المدينة، وقد اشتد الطلب فى أثرهما من الطامعين فى جائزة قريش (مائة ناقة) لمن يأتى بواحد منهما حيا أو ميتا. فبادر أحد فرسان قريش واسمه «سراقة بن مالك» يركض بحثا عنهما، وعين الله تحرسهما حتى إذا قرب منهما غاصت أقدام فرسه فى الأرض فيستجير برسول الله (ﷺ) فيجيره، وعندئذ يدفعه الطمع إلى تناسى ماوقع له فيصيبه أشد منه، ثم أشد منه وهكذا حتى آمن ألا سبيل له إليهما فيعود صادا للطلب، رادا للمتعقبين ورسول الله (ﷺ) يقول فى طريقه : «**اللهم اصحبنى فى سفرى واخلفنى فى أهلى**».

وقد أمر رسول الله (ﷺ) أبا بكر أن يشغل الناس عنه، فكان إذا سئل : **من هذا الذى بين يديك؟ يقول : هذا هاد يهدينى السبيل، وقد صدق فيما قال من تورية.**

الحادى والعشرون: حادثة أم معبد والشاة المجهدة:

وفى الطريق إلى المدينة نزل رسول الله (ﷺ) وصاحبه (رضى الله عنه) لشىء من الراحة والتزوُّد، فنزلا على خيام لأم معبد

الخزاعية وهى تعيش فى شدة من الجدب والعون، فسألاها أن تبيعهم لحما أو لبنا أو تمرا، فقالت : والله لو كان عندنا ما أعوزناكم القرى، فأبصر رسول الله (ﷺ) شاة خلفها عن الغنم شدة مابها من جهد وهزال فقال (ﷺ) : **هل بها من لبن ؟** قالت : **هى أجهد من ذلك قال** (ﷺ) : **أتأذنين لى فى حلابها؟** أجابت: والله ماضر بها من فحل قط فشأنك إن رأيت فيها حلبا فاحلبه. فمسح (ﷺ) بيده الشريفة على ظهرها وضرعها وسمى الله، فدرّت ودعا بإناء يروى جماعة فحلب، فنزل اللبن قويا فى صوته، ثرا فى تدفقه، فقدم لأم معبد فشربت حتى رويت، وشرب من حضر حتى روى، وأخيرا شرب رسول الله (ﷺ) حتى روى، وكان قدومه على أهل هذه المحلة بشير يمن وبركة فنزل الغيث، واخضرت الأرض، ودرت الضروع، فأطلقوا على زائرهم اسم «**المبارك**» (ﷺ).

وفى الطريق لقى رسول الله (ﷺ) أبا بريدة وكان رئيس قومه، وكان قد خرج فى طلب الرسول وصحبه، ولما واجههم أسلم مع سبعين من قومه. ولقى الركب الكريم كذلك الزبير فى جماعة من التجار المسلمين العائدين من رحلة إلى بلاد الشام، ففرحوا بلقاء رسول الله (ﷺ) وصحبه الكرام واستبشروا بذلك خيراً.

الثانى والعشرون: الوصول إلى المدينة:

سمع المسلمون من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة بخروج رسول الله (ﷺ) وصاحبه من مكة المكرمة قاصدين المدينة، وتوقعوا زمن وصولهما، فكانوا إذا صلوا الصبح خرجوا إلى ظاهر المدينة ينتظرونهما حتى تستبد بهم الشمس فيعودون إلى بيوتهم، وكان الزمان زمن صيف، واستمروا على ذلك عدة أيام.

وأخيرا وصل رسول الله (ﷺ) وصاحبه ـ رضى الله عنه ـ إلى قباء فى صباح الإثنين الثامن من ربيع الأول سنة ١٤ بعد البعثة النبوية الشريفة (أى السنة الأولى للهجرة وكان ذلك يوافق ٢٣/٩/٦٦٢م) فاستقبلهما أهلها بالترحاب والبهجة والفرحة، وكان يوما مباركا على أهلها وقضى رسول الله (ﷺ) وصاحبه أياما فى قباء يصليان فى مسجدها وكان أول مسجد أسس على التقوى.

ثم تحول رسول الله (ﷺ) إلى المدينة انتزاعا من قلوب أهل قباء. وفى المدينة تزاحم أهلها على زمام ناقته كل يريد أن يظفر بنزول رسول الله (ﷺ) وصحبه عنده فيقول (ﷺ) : «**دعوها فإنها مأمورة**» حتى بركت فى موضع مسجده الشريف (ﷺ) وإلى جواره كانت دار أبى أيوب الأنصارى (رضى الله عنه) التى نزل فيها رسول الله (ﷺ). وكانت هذه الأرض الخلاء التى بركت فيها ناقة رسول الله (ﷺ) ملكا ليتيمين فى المدينة، وهباها لرسول الله الذى أصر على دفع ثمنها كاملا قبل البدء ببناء المسجد.

أمر رسول الله (ﷺ) ببناء مسجده حيث بركت ناقته القصواء وجاء بناء المسجد بسيطا غاية البساطة؛ فراشه الرمال والحصباء، وأعمدته جذوع النخل، وسقفه الجريد. وفى هذا الفناء المتواضع ربى رسول الله (ﷺ) رجالا مؤمنين بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبرسالة الإنسان فى هذه الحياة عبدا مستخلفا فى الأرض، يعبد الله (تعالى) بما أمر، ويقيم عدل الله فى الأرض، ويسعى فى عمارتها وفى حسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها، فحطموا الطغيان والطغاة، وكسروا الجبابرة، ونشروا الإسلام فى الأرض.

وفى المدينة المنورة آخى رسول الله (ﷺ) بين المهاجرين والأنصار فجعل لكل مهاجر أخا من الأنصار فقاسموهم كل شيء حتى نزل فيهم قول الحق (سبحانه وتعالى) :

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. (الحشر: ٩، ١٠)

وكان من عوامل نجاحه (ﷺ) فى أداء رسالته ذلك التدريب النفسى الشاق الذى عَرَّضه الله (تعالى) له من اليتم، والاغتراب عن الأهل فى طفولته المبكرة، وفقد الزوجة والعم، وموت أبنائه الذكور فى حياته وهم أطفال صغار، ومطاردة المشركين والكافرين له ولأصحابه فى كل مكان وتدريبه (ﷺ) على تحمل الفقر، والجوع، والعطش، وشظف العيش، فقد زهدت فيه المرضعات وهو رضيع، ورعى الغنم على قراريط لأهل مكة، وعمل بالتجارة منذ عمر ثلاث عشرة سنة وحتى بعثته الشريفة، وحوصر فى شعب بنى هاشم لثلاث سنوات كاملة حتى اضطر (ﷺ) ومن معه إلى أكل ورق الشجر.

وكان من عوامل نجاحه (ﷺ) كذلك أنه كان قد أوقف حياته، ونذر نفسه لله (عز وجل) من أجل إعلاء دينه، وإقامة عدله فى الأرض انصياعا لأمره (تعالى) إليه (ﷺ) بقوله (عز من قائل):

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

(الأنعام : ١٦١ـ١٦٣)

وكان من عوامل نجاحه (ﷺ) أيضًا وضوح الرؤية أمامه، ومعرفة الطريق التى يسلكها، معرفة دقيقة، والإلمام بأبعاد الرسالة التى حمَّلها له الله (تعالى) تكليفا وتشريفا وحملها هو (ﷺ) بكل إيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وإخلاص لدينه ووفاء بعهده وتجرد لذاته العلية إلى الناس جميعًا فى زمانه، ومن بعد زمانه إلى يوم الدين، وحَمَّلَ أمانة التبليغ إلى كل مسلم ومسلمة من بعده، وفى ذلك يأمره الله (تعالى) بقوله العزيز :

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ . (يوسف : ١٠٨)

وكان (ﷺ) فى سلوكه وخلقه ومعاملاته مثلا أعلى للأنبياء وللإنسانية جمعاء وأسوة حسنة للناس وقدوة لهم، فما كان يطلب من الناس شيئا إلا إذا كان قد قام به بنفسه هو ولذلك وصفه الحق (تبارك وتعالى) بقوله :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ . (القلم . ٤)

وقوله (عز من قائل):

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ . (الأحزاب: ٤٥ ، ٤٦)

وقد نجح رسول الله (ﷺ) نجاحا منقطع النظير فى إبلاغ رسالته على أفضل وجه، وفى إقامة دولة الإسلام على أسس من الحق الواضح والعدل الذى لا يميل، كما نجح فى تربية صحابته التربية الإسلامية الصحيحة القائمة على مراقبة الله فى كل أمر، وخشيته وتقواه فى السر والعلن حتى تمكن من تخريج جيل من المسلمين المتميزين الذين شاركوه فى إقامة الدولة الإسلامية بإخلاص وتجرد لله، وتبعوه على الحق إلى أن لقوا الله (تعالى) وهو راض عنهم، وقد تم ذلك كله وسط جوٍّ من المطاردة والاضطهاد والحرب المستمرة من كل قوى الشر على وجه الأرض.

وقد أحيا رسول الله (ﷺ) كثيرا من القيم الإنسانية العليا التى كانت المجتمعات البشرية قد فقدتها بفقدها الصلة برسالة السماء، وكانت رسالة السماء ـ فى جملتها ـ قد ضاعت قبل بعثته الشريفة أو تعرضت للتحريف والتبديل والتغيير، باستثناء بعض بقايا الحق القديم التى احتفظت بها حفنة من الموحدين الأحناف، ومن هذه القيم التى أحياها رسول الله (ﷺ) حفظ الضرورات الخمس من: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال لكل إنسان.

وقد أعاد رسول الله (ﷺ) هذه القيم إلى الناس من جديد، وبنى بها أمة حملت الأمانة من بعده، وأدت رسالتها على خير مايحب ربنا ويرضى: وقد تم له ذلك كله فى أقل من ربع قرن (٢٣سنة).

واستمرت الأمة الإسلامية بهذه الدفعة المباركة لتقيم أعظم حضارة عرفتها البشرية وأكملها؛ لأنها الحضارة الوحيدة التى جمعت بين الدنيا والآخرة فى معادلة واحدة، وأخذت بأسباب

التقدم فى كل منحى من مناحى الحياة، وقادت البشرية على مدى أحد عشر قرنا أو يزيد فى توازن افتقرت إليه أغلب الحضارات السابقة واللاحقة.

وقد استفاد رسول الله (ﷺ) فى ذلك كله بهداية الله - تعالى - له، ورعايته لشخصه الكريم، وحفظه له فى طفولته وشبابه، وتأديبه (تعالى) له، وتثبيته أمام ما لاقى من شدائد، وكان منها يتمه فى طفولته، وغربته عن أهله، وفقره وهو من ذوى الحسب والنسب، واضطراره إلى رعى الغنم لأهل مكة على قراريط، وإلى السفر فى تجارة لعمه وهو فى الثالثة عشر من عمره الشريف، وفى تجارة أخرى للسيدة خديجة وهو دون الخامسة والعشرين، ثم تحميله أمانة التبليغ عن الله (تعالى)، ومقاومة قومه وأقرب الناس إليه لدعوته وقيامهم على اضطهاد أصحابه وتعذيبهم إلى حد القتل، وحصاره (ﷺ) هو وأصحابه وذوى رحمه فى أحد شعاب مكة (شعب أبى طالب أو شعب بنى هاشم) لثلاث سنوات متتاليات حتى أكلوا ورق الشجر، واصطبارهم على ذلك حتى أتاهم الفرج من الله (تعالى). وكان منها تآمر قريش على سجنه أو نفيه أو قتله، ثم هجرته من مكة إلى المدينة. وغير ذلك من الشدائد التى أعد الله (تعالى) بها خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) خير إعداد.

وكان (ﷺ) يعايش صحابته الكرام فى بساطة ويسر، وأخوة إسلامية تسبق رابطة الدم، ويشاركهم حياتهم مهما كانت صعبة وقاسية وذلك انصياعا لأمر الله تعالى الذى يأمره فيه بقوله (عز من قائل) :

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ . (الكهف : ٢٨)

وقد ربى رسول الله (ﷺ) صحابته على الأخوة الإسلامية القائمة على الحب فى الله ولله، وعلى تحمل المسئولية منذ نعومة الأظافر فأرسل مصعب بن عمير إلى المدينة كأول سفير للإسلام، وأرسل أسامة بن زيد وهو ابن العشرين على إمرة الجيش الذى أرسله لمجابهة جيش الروم.

وربط صحابته من المهاجرين والأنصار برباط من الحب فى الله والاستعداد للتضحية بالأهل والمال والنفس فى سبيله، وفى ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ . (الحشر: ٨ ، ٩)

وقد التزم رسول الله (ﷺ) دومًا بالصبر والمصابرة، وألزم صحابته الكرام بهما، وفى ذلك يقول له الحق (تبارك وتعالى) :

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ...﴾ . (الأحقاف : ٣٥)

ووصفته السيدة عائشة (رضى الله عنها) بقولها: «كان خلقه القرآن».

وكان الله (تعالى) قد منحه همة عالية، وعزيمة سامية، وإرادة قاطعة فى بشريته التى يعترف بها كما جاء فى أمرٍ من الله له ـ أن يقولها؛ وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى) :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

(الكهف : ١١٠)

ويأمره ربه بمجاهدة الكفر وأهله على الدوام والاستعداد لذلك بقول الحق (تبارك وتعالى) :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾ . (الأنفال : ٦٠)

وكان (ﷺ) شديد المواظبة على عمله، دائم الحركة والمجاهدة فى سبيل الله، وكان يوصى أصحابه (رضوان الله عليهم) بالمداومة على عمل الصالحات والاستمرار فى ذلك حتى يلقى الواحد منهم الله (تعالى) وهو راض عنه، وكان دائم التذكير لهم بأن: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»(١).

وكان (ﷺ) يحرص على جمع كلمة المسلمين ولم شملهم انصياعا لأمر الله (تعالى) الذى يقول فيه:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا...﴾ . (آل عمران : ١٠٣)

الثالث والعشرون: وضع دستور المدينة:

كان أول عمل لرسول الله (ﷺ) عندما استقر فى المدينة هو وضع دستور لها، فأقر وثيقة تعتبر واحدة من أقدم الوثائق

(١) متفق عليه.

الدستورية فى التاريخ من أجل قيام دولة، وتكوين جماعة جديدة، وهى وثيقة تتسم بالجدية، والموضوعية، والسياسة، والكياسة بما احتوته من توثيق للروابط بين سكان المدينة من المسلمين وغير المسلمين تأكيدا على الأخوة الإنسانية، والمساواة بين الناس، وعلى حرية التدين، وحتمية التعاون بين أصحاب المعتقدات المختلفة فى الوطن الواحد، وبهذه الوثيقة، بدأ رسول الله (ﷺ) فى بناء دولة الإسلام بالمدينة وفى بناء إنسان هذه الدولة على أسس إسلامية واضحة وسط بيئة بدوية متخلفة لا تعرف مثل هذا التنظيم.

وجاء دور التشريع وتنظيم العبادات والمعاملات فى المدينة بعد أن كان دور مكة المكرمة مكرسا لتركيز العقيدة، ولتأسيس القواعد الصحيحة لمكارم الأخلاق. وبدأت فى المدينة المنورة مرحلة الجهاد فى سبيل الله بمجرد قيام دولة الإسلام .

وكان من التشريعات الرئيسية التى وضعها المصطفى (ﷺ) فى المدينة المنورة التأكيد على النقاط التالية:

(١) صلة الأمة بربها أفرادا وجماعات، باعتبار القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما احتويا من المبادئ، والضوابط والمقاصد والغايات هى المصدر الأساسى للتشريع مع وجود مجموعة القواعد الأساسية التى تحدد شكل الدولة، ونظام الحكم فيها، ومدى سلطاتها إزاء الأفراد والجماعات (أو ما يعرف اليوم باسم الدستور) الذى يضبط القواعد، وينظم الحقوق ويحكم العلاقات والذى جمع فى صحيفة المدينة.

(٢) صلة المسلم بأخيه المسلم والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

(٣) صلة المسلمين بغيرهم من أصحاب المعتقدات الأخرى من أهل الكتاب.

(٤) تأسيس الدولة على قاعدة من الشورى بأمر من الله القائل:

﴿ ...وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ.... ﴾ . (آل عمران : ١٥٩)

(٥) الاهتمام ببناء الإنسان المسلم، والمجتمع المسلم.

(٦) الاهتمام بفريضة الجهاد فى سبيل الله.

(٧) الاهتمام بنشر الدعوة الإسلامية بين غير المسلمين.

(٨) إخراج الإنسان من إطار القبلية الضيق إلى رحاب الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية.

(٩) إبراز ذاتية الفرد ، ومسئوليته فى المجتمع، بعد أن كانت ذائبة فى كيان القبيلة: شرفه لها، ووزره عليها، وتبعاته مطلوبة منها، وجرائمه محسوبة عليها، فجاءت «صحيفة المدينة» لتجعل فروض الكفاية الاجتماعية على الأمة، وفروض العين الفردية يحملها الفرد، فلا يأثم امرؤ بحليفة، والجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

(١٠) رفض الطبقية الجاهلية، عرقية كانت أو اجتماعية، وجعل الأمة متكافلة ومتضامنة فى الحق، وفى نصرة المظلوم وفى المساواة القانونية (ذمة الله واحدة، والمؤمنون يجير عليهم أدناهم)، وفى حمل الدين عن المدين حتى يرفع عن كاهله.

(١١) إقرار التسوية فى المواطنة وحقوقها وواجباتها بين المسلمين وغير المسلمين من رعايا دولة الإسلام.

(١٢) إقرار كل الفضائل التى كانت قد بقيت فى المجتمعات الجاهلية والتى لا تتعارض مع روح الشريعة الإسلامية.

الرابع والعشرون: عداء اليهود للإسلام ولرسول الإسلام (ﷺ):

على الرغم من كل هذا النبل والسماحة وكرم الخلق الذى وضعه رسول الله (ﷺ) فى دستور المدينة إلا أن يهودها قد عادوه عداء مليئا بالنذالة والخسة والحقارة. وذلك بسبب أن اليهودية كانت قد خرجت على دين الله، وانحرفت عن منهجه، وحاربت أنبياءه وأولياءه، وتحولت إلى حالة من حالات الأمراض النفسية المليئة بعقد الاستعلاء على الخلق، فلم يكن ممكننا ليهود المدينة أن يقبلوا بنبوة خاتم المرسلين (ﷺ) وهو ليس من بينهم انطلاقا من العلوية الكاذبة التى يتربون عليها.

فقد كانت دعوة موسى (عليه السلام) قائمة على أساس من التوحيد الخالص لله، وانحرف اليهود فى حياته عن التوحيد فعبدوا العجل. وزاد انحرافهم من بعده بالانحطاط إلى صور متعددة من الشرك، وإن ادعوا أنهم أمة التوحيد، وتخيلوا أنه ميزة لهم فوق شرك الوثنيين، فى قلب الجزيرة العربية، وتثليث المسيحيين على أطرافها الغربية والجنوبية.

وجاء رسول الله (ﷺ) من صميم العروبة، والعرب من الساميين، وجاء يدعو إلى التوحيد الخالص لله، وعلى الرغم من ذلك فقد رفض اليهود دعوته، وتآمروا عليه، ونقضوا كل عهودهم معه، وتعاونوا مع أعدائه الوثنيين، وألبوا عليه القبائل، وحاولوا سمه وقتله، ولكن الله (تعالى) نجاه من كيدهم، ونصره عليهم.

روى ابن إسحاق عن عاصم بن قتادة عن أشياخ من قومه أنهم قالوا فى اليهود : «**كنا قد علوناهم ظهرا فى الجاهلية، ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون لنا : إن نبيا**

يبعث الآن نتبعه قد أطل زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله (ﷺ) من قريش فاتبعناه وكفروا هم به، وفى ذلك نزل قوله (تعالى):

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. (البقرة : ٨٩)

الخامس والعشرون: إسلام عبدالله بن سلام :

ومن أهمية ورمزية هذا الحدث أجدنى مضطرا إلى إعادته هنا على الرغم من سرده فى صفحات سابقة، وذلك لمواءمته للمقامين، فقد كان عبدالله بن سلام من أحبار اليهود، ثم مَنَّ الله (تعالى) عليه بالإسلام، وروى قصة إسلامه قائلا : «لما سمعت برسول الله (ﷺ) عرفت صفته، واسمه، وزمانه الذى كنا نترقب له، فكنت مُسرًا لذلك، صامتا عليه، حتى قدم رسول الله (ﷺ) المدينة، فلما نزل بقباء، فى بنى عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله (ﷺ) كَبَّرت، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرى : خيبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت، فقلت لها: أى عمة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعث بما بُعث به، فقالت : أى ابن أخى! أهو النبى الذى كنا نخبر أنه بعث مع نفس الساعة (أى الذى بعثته علامة على قرب القيامة)؟

فقلت لها : نعم، فقالت : فذاك إذن.

قال عبدالله بن سلام : ثم خرجت إلى رسول الله (ﷺ) فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا، وكتمت إسلامى عن يهود، ثم جئت رسول الله (ﷺ) فقلت له : يارسول الله : إن يهود قوم بهت (أى أهل باطل أو على الباطل)، وإنى أحب أن تدخلنى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى.

فأدخلنى رسول الله (ﷺ) فى بعض بيوته، ودخل عليه وفد من رؤساء اليهود فكلموه وسألوه، ثم قال لهم (ﷺ) : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم : يامعشر يهود! اتقوا الله واقبلوا ماجاءكم به رسول الله (ﷺ) فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله (ﷺ)، وأؤمن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بى، فقلت لرسول الله (ﷺ): ألم أخبرك يارسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور، فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

السادس والعشرون: تكرار خيانات اليهود فى المدينة:

تكررت خيانات اليهود لعهودهم التى قطعوها لرسول الله (ﷺ) فى المدينة وكان من ذلك:

(١) خيانة يهود بنى قينقاع الذين نقضوا عهدهم مع رسول الله (ﷺ) فحاصرهم خمسة عشر يوما ثم أجلاهم عن المدينة التى غادروها إلى سورية مذمومين مدحورين.

(٢) خيانة يهود بنى النضير للعهد الذى قطعوه لرسول الله (ﷺ) منذ وصل إلى المدينة. عندما وسطهم للصلح بينه وبين يهود بنى عامر، فحاولوا قتله (ﷺ) وهو فى ضيافتهم وذلك بإلقاء رحى طاحون عليه من شرفة مطلة على مجلسه وهو جالس على بساط بسطوه له عمدا فى هذا الموقع من قلعتهم الحصينة على مقربة من قباء، وكان (ﷺ) جالسا فى عشرة من أصحابه بينهم أبو بكر وعمر وعلى (رضى الله عنهم أجمعين)، ولكن الله ـ تعالى ـ أعلمه بمؤامرتهم فغادر المكان غاضبا، ثم أمر بإجلائهم وتم له ذلك بعد حصار دام ستة أيام فمنهم من هاجر إلى خيبر، ومنهم من هاجر إلى سورية، وفيهم نزلت سورة الحشر.

(٣) خيانة يهود بنى قريظة لعهودهم مع رسول الله (ﷺ) وانضمامهم إلى الأحزاب من قريش وغطفان وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

(النساء ٥١:٥٢)

(٤) خيانة يهود خيبر ومحاولتهم سم رسول الله (ﷺ) والحكم بإجلائهم.

السابع والعشرون: إسلام سلمان الفارسى:

يروى الصحابى الجليل سلمان الفارسى (رضى الله عنه) قصة إسلامه كما جاءت بها كتب السيرة: من مثل الطبقات

الكبرى لابن سعد فيقول : «كنت رجلا من أهل أصبهان، من قرية يقال لها (جى) بفارس، وكان أبى دهقان (أى عمدة أو حاكم) بلده، وكنت من أحب عباد الله إليه، وقد اجتهدت فى المجوسية، حتى كنت قاطن النار (أى موقدها)، ولا نتركها تخبو أبدًا، وكان لأبى ضيعة، أرسلنى إليها يوما فمررت بكنيسة للنصارى، فسمعتهم يصلون، فدخلت عليهم أنظر مايصنعون، فأعجبنى مارأيت من صلاتهم وقلت لنفسي: هذا خير من المجوسية التى نحن عليها، فما برحتهم حتى غابت الشمس، وماذهبت إلى ضيعة أبي، ولارجعت إليه حتى بعث فى إثرى، وسألت النصارى عن أصل دينهم فقالوا : فى بلاد الشام. وقلت لأبى حين عدت إليه: إنى مررت بقوم يصلون فى كنيسة لهم فأعجبتنى صلاتهم، ورأيت أن دينهم خير من المجوسية التى نحن عليها، فحاورنى وحاورته، ثم جعل فى رجلى حديدا وحبسنى. وأرسلت إلى النصارى - وأنا فى حبسى - أخبرهم أنى دخلت فى دينهم، وسألتهم إذا قدم عليهم ركب من بلاد الشام، أن يخبرونى قبل عودتهم إليها، لأرحل إلى الشام معهم وقد فعلوا، فحطمت قيدى الحديد وخرجت إليهم، وانطلقت مع الوفد إلى بلاد الشام.

وهناك سألت عن عالمهم، فقيل لى هو الأسقف صاحب الكنيسة، فأتيته وأخبرته خبرى، وأقمت معه أخدمه وأصلى معه وأتعلم منه، ولكن هذا الأسقف كان رجل سوء فى دينه، إذ كان يجمع الصدقات من الناس ليوزعها فيكتنزها لنفسه، ثم مات. وجاءوا بآخر وجعلوه مكانه، فما رأيت رجلا على دينهم خيرا منه، ولا أعظم رغبة فى الآخرة، وزهدا فى الدنيا، ودأبا على

العبادة، فأحببته حبا ماعلمت أنى أحببت أحدا مثله قبله، فلما حضره قدره قلت له : إنه قد حضرك من أمر الله ماترى، ففيم تأمرنى، وإلى من توصي بى؟ قال : أى بنى ما أعرف أحدا من الناس على مثل ماأنا عليه إلا رجلا بالموصل، فلما توفى أتيت صاحب الموصل بالعراق فأخبرته الخبر، وأقمت معه ماشاء الله أن أقيم، ثم حضرته الوفاة، فسألته، فدلنى على عابد فى نصيبين، فأتيته وأخبرته خبرى، ثم أقمت معه ماشاء الله أن أقيم، فلما حضرته الوفاة سألته فأمرنى أن ألحق برجل فى عمورية من بلاد الروم، فرحلت إليه، وأقمت معه واصطنعت لمعاشى بقرات وغنيمات، ثم حضرته الوفاة فقلت له : إلى من توصى بى؟فقال : يابنى ما أعرف أحدا على مثل ماكنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبى يبعث بدين إبراهيم حنيفا، يهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرتين، فإن استطعت أن تلحق به فافعل، وإن له آيات لاتخفى، فهو لايأكل الصدقة ويقبل الهدية، وإن بين كتفيه خاتم النبوة، إذا رأيته عرفته.

ومر بى ركب ذات يوم فسألتهم عن بلادهم، فعلمت أنهم من جزيرة العرب، فقلت لهم : أعطيكم بقراتى هذه وغنمى على أن تحملونى معكم إلى أرضكم؟ قالوا : نعم واصطحبونى معهم حتى قدموا بى وادى القرى وهناك ظلمونى وباعونى إلى رجل من يهود، ويصرت بنخل كثير، فطمعت أن تكون هى البلدة التى وصفت لى، والتى ستكون مهاجر النبى المنتظر، ولكنها لم تكنها. وأقمت عند الرجل الذى اشترانى، حتى قدم عليه يوما رجل من يهود بنى قريظة، فابتاعنى منه، ثم خرج بى حتى قدمت المدينة، فوالله ماهو

إلا أن رأيتها حتى أيقنت أنها البلدة التى وصفت لى، وأقمت معه أعمل له فى نخله فى بنى قريظة حتى بعث الله تعالى رسوله (ﷺ) ، وحتى قدم المدينة، ونزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف.

وإنى لفى رأس نخله يوما، وصاحبى جالس تحتها، إذ أقبل رجل من يهود، بنى عمه، فقال يخاطبه : قاتل الله بنى قيلة (أى الأوس والخزرج لأنهم بنو أم واحدة) إنهم ليتخاصمون على رجل بقباء، قادم من مكة يزعم أنه نبى. فوالله ماهو إلا أن قالها حتى أخذتنى العدواء (أى الرعدة مع الانتفاضة)، فرجفت النخلة حتى كدت أسقط فوق صاحبى، ثم نزلت سريعا أقول : ماذا تقول ؟ ماالخبر؟ فرفع سيدى يده ولكزنى لكزة شديدة، ثم قال : مالك ولهذا؟ أقبل على عملك. فأقبلت على عملى، ولما أمسيت جمعت ماكان عندى، ثم خرجت حتى جئت رسول الله (ﷺ) بقباء، فدخلت عليه ومعه نفر من أصحابه فقلت لهم : إنكم أهل حاجة وغربة، وقد كان عندى طعام نذرته للصدقة، فلما ذكر لى مكانكم رأيتكم أحق الناس به فجئتكم به.. ثم وضعته، فقال الرسول (ﷺ) لأصحابه : كلوا باسم الله.. وأمسك هو (ﷺ) فلم يبسط إليه يدا، فقلت فى نفسى : هذه والله واحدة : إنه لايأكل الصدقة.

ثم رجعت وعدت للرسول (ﷺ) فى الغداة أحمل طعاما، وقلت له (عليه الصلاة والسلام) إنى رأيتك لاتأكل الصدقة، وقد كان عندى شيء أحب أن أكرمك به، هدية، ووضعته بين يديه (ﷺ)، فقال لأصحابه : كلوا باسم الله، وأكل معهم، فقلت لنفسى هذه والله الثانية : إنه يأكل الهدية.

ثم رجعت فمكثت ماشاء الله، ثم أتيته (ﷺ)، فوجدته فى البقيع قد تبع جنازة، وحوله أصحابه، وعليه شملتان مؤتزرا

بواحدة ومرتديًا الأخرى، فسلمت عليه، ثم عدلت لأنظر أعلى ظهره (ﷺ)، فعرف أنى أريد ذلك، فألقى بردته عن كاهله، فإذا العلامة بين كتفيه : خاتم النبوة كما وصفه لى صاحبى، فأكببت عليه أقبله وأبكى، ثم دعانى (عليه الصلاة والسلام) فجلست بين يديه، وحدثته حديثى، كما أحدثكم الآن، ثم أسلمت، وحال الرق بينى وبين شهود بدر وأحد.

وفى ذات يوم قال لى الرسول (عليه الصلاة والسلام): «كاتب سيدك حتى يعتقك» فكاتبته، وأمر الرسول (ﷺ) الصحابة كى يعاونونى، وحرر الله رقبتى، وعشت حرا مسلما، وشهدت مع رسول الله (ﷺ) غزوة الخندق والمشاهد كلها».

الثامن والعشرون: معركة بدر الكبرى:

فى ليلة الجمعة الموافقة للسابع عشر من رمضان سنة ٢ من الهجرة (الموافق سنة ٦٢٤م) وقعت معركة بدر الكبرى التى استغرقت ثلاث ليال قفل بعدها رسول الله (ﷺ) عائدا إلى المدينة يسوق أمامه الأسرى والغنائم. وسن (ﷺ) سنة حسنة فى معاملة الأسرى. وكان عدد أفراد جيش المسلمين ٣١٧ مجاهدا (٨٦ من المهاجرين، ٢٣١ من الأنصار) وكان عدد أفراد جيش الكفار أكثر من ألف مقاتل. ولم يكن مع جيش المسلمين إلا فرسان وسبعون بعيرا، وكان الجيش الكافر فى أعلى درجات عدته وعتاده. وفى نهاية المعركة تبين أنه قد سقط من المسلمين ١٤ شهيدا (٦ من المهاجرين، ٨ من الأنصار) بينما قتل من الكفار سبعون وأسر مثل عددهم.

وقد سمى الله (تعالى) هذه المعركة باسم «يوم الفرقان»، وأنزل فيها قرآنا يتلى إلى يوم الدين، يقول فيه ربنا (تبارك وتعالى):

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾. (الأنفال: ٧-١٤)

ويقول الحق (تبارك اسمه) في نفس السورة:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(الأنفال: ٤١)

وقبل وقوع هذه المعركة أشار رسول الله (ﷺ) إلى مصارع الكفار واحدا واحدا، فما تعدى مصرع أحدهم موضع إشارته، وكان (ﷺ) أقرب المجاهدين إلى العدو وأشدهم بأسا عليهم.

التاسع والعشرون: معركة أحد:

في السنة الثالثة من الهجرة (سنة ٦٢٥م تقريبًا) وقعت معركة أحد التي هُزم فيها المسلمون بسبب مخالفة الرماة لأمر رسول الله (ﷺ) ألا يغادروا الجبل مهما كانت الأسباب، فغادروه طمعا في جمع الغنائم بعد أن كانت المعركة قد انتهت فعلا لصالح المسلمين.

وكان عدد قوات المشركين ثلاثة آلاف، وعدد قوات المسلمين سبعمائة. وأظهرت المراحل الأولى من القتال تفوق المسلمين على المشركين رغم كثرة المشركين، ولكن بمجرد أن تخلى الرماة عن مواقعهم فوق الجبل استدار خالد بن الوليد بخيله إلى الجبل وكان قائد فرسان المشركين قبل إسلامه، وحاصر المسلمين من الخلف وهاجمهم من حيث لايتوقعون، وانتهت المعركة بخسائر كبيرة في الجانبين، فقد سقط العديد من شهداء المسلمين، وكسرت رباعية المصطفى (ﷺ)، وأنفه، وشُجَّ رأسه الشريف وشاع بين الناس استشهاده (ﷺ)، وكان بين شهداء المسلمين حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) - وعدد غير قليل من أكابر الصحابة الذين حملوا أعباء الدعوة الإسلامية في وقت الشدائد والمحن، واغتربوا بدينهم من قبل الهجرة إلى المدينة ومن بعدها، وعادوا في سبيل الله الأهل والأصدقاء، وبذلوا الأموال والدماء حتى أتاهم اليقين على سفوح جبل أحد.

وكان من الدروس المستفادة من معركة أحد تربية المسلمين على ضرورة - بل حتمية - التجرد الكامل لله، والإخلاص التام لدينه، والانصياع القانع والطاعة الراضية لأوامر رسوله (ﷺ)، فلقد كانت هزيمتهم بسبب خطأ واحد تمثل في عصيان الرماة

لأمر رسول الله (ﷺ) ألا يغادروا الجبل لأى سبب من الأسباب، فغادروه ظنًّا منهم بانتهاء المعركة لصالح المسلمين، ومثل موقف هؤلاء الرماة - على قلتهم - **عصيانا** لأمر رسول الله (ﷺ) فى صفوف المجاهدين فكانوا سببا فى هزيمة الجميع.

وعلى الرغم من ذلك فقد أبدى مجاهدو المسلمين فى هذه المعركة شجاعة نادرة، وبسالة منقطعة النظير، وتضحية وفداءً قل أن يوجد لهما مثيل، فقد وقف أبو دجانة (رضى الله عنه) يحمى ظهر رسول الله (ﷺ) ويجعل من ظهره هو درعا يتلقى فيه السهام دفاعا عن رسول الله (ﷺ). حتى نجاه الله (تعالى) ونظرا للخسائر الكبيرة فى صفوف المشركين فقد آثروا الانسحاب من أرض المعركة تاركين وراءهم المئات من قتلاهم، بعد أن أصابهم أضعاف ما أصاب المسلمين من خسائر.

الثلاثون: معركة الخندق (الأحزاب) :

وقعت هذه المعركة فى الثامن من ذى القعدة سنة خمس من الهجرة حين لجأ يهود بنى النضير، الذين كانوا قد أجلوا عن المدينة إلى كفار قريش وغيرهم من قبائل المشركين والكافرين من العرب من أجل تكتيلهم لمحاربة رسول الله (ﷺ)، وجمعوا لذلك أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وانضم إليهم يهود بنى قريظة ناقضين بذلك كل عهودهم مع رسول الله (ﷺ). وجمع المسلمون فى المقابل ثلاثة آلاف من المجاهدين. وأشار سلمان الفارسى على رسول الله (ﷺ) بحفر خندق فى المنطقة الوحيدة المكشوفة من أرض المدينة المنورة أمام الغزاة بعرض تسعة أذرع وطول خمسة آلاف ذراع، وعمق من سبعة إلى عشرة أذرع.

وعندما وصلت الأحزاب إلى المدينة فوجئوا بالخندق، وقاموا بعدة محاولات لاقتحامه ولكنهم فشلوا أمام سهام المسلمين، واستمر الحصار لأربع وعشرين ليلة، ثم سخر الله (تعالى) ريحا هوجاء باردة، أهلكت الغزاة من الكفار والمشركين، وقام نعيم بن مسعود بدور رائد فى التخذيل لدى الأحزاب الذين انسحبوا خائبين.

ونظرا لنقض يهود بنى قريظة عهدهم مع رسول الله (ﷺ)، فى هذه المعركة ذاتها فقد أمر بقتالهم بعد عودة المسلمين من معركة الخندق مباشرة، وخرج رسول الله (ﷺ) فى ثلاثة آلاف مقاتل وضرب الحصار على يهود بنى قريظة لمدة خمس وعشرين ليلة حتى استسلموا وتم القضاء على معظم مقاتليهم. وإجلاء من بقى منهم عن أرض المدينة المنورة وكان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة خمس من الهجرة.

الحادى والثلاثون: تحويل القبلة وفرض صيام رمضان:

أول ما نزل رسول الله (ﷺ) المدينة نزل على أخواله من بنى النجار وهم من الأنصار، وصلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، وكان يتوق إلى جعل قبلته الكعبة المشرفة وفى النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة أمر الله (تعالى) خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام. وفى ذلك يقول ربنا (تبارك وتعالى):

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾. (البقرة. ١٤٢ ـ ١٥٠)

وفى خضم نفس السنة الثانية من الهجرة وفى شهر شعبان منها أيضا (على أصح الأقوال) فرض صيام شهر رمضان المبارك بقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (البقرة ١٨٣ - ١٨٥)

مما يؤكد أن صيام شهر رمضان كما يصومه المسلمون كان مفروضا على جميع أصحاب الرسالات السابقة تكريما لهذا الشهر الفضيل الذى اختاره الله (تعالى) لإنزال جميع رسالته السماوية فيه، وتعظيما لفريضة الصيام كما يؤديها المسلمون لأن الصيام من أحب القربات إلى الله وأنفعها للمتعبدين له (سبحانه وتعالى).

الثانى والثلاثون: صلح الحديبية:

فى يوم الإثنين هلال ذى القعدة من السنة السادسة الهجرية خرج رسول الله (ﷺ) يقصد مكة المكرمة لأداء العمرة فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار الذين كانوا يحملون أسلحتهم استعدادا للدفاع عن أنفسهم فى حالة التعرض لهم بالمنع من أداء العمرة أو الاعتداء عليهم، ورفض أهل مكة دخول المسلمين إليها وقبل النبى ذلك وتم صلح الحديبية الذى تخيله

عدد من المسلمين تنازلا لمشركى قريش، وجعله الله فتحا كبيرا.

وقد نزلت «سورة الفتح» تصف صلح الحديبية بأنه فتح مبين، وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى) :

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ .

(الفتح: ١ ـ ٣)

وقد سميت السورة بهذا الاسم لاستهلالها بذكر ذلك الفتح المبين الذى يسره الله (تعالى) لخاتم أنبيائه ورسله (ﷺ)، وهو «صلح الحديبية» الذى رأى فيه غالبية المسلمين تنازلا لكفار مكة حتى قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه وأرضاه) لرسول الله (ﷺ): **ألست نبى الله حقًا؟ قال : بلى! قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ! قال : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن ؟ قال : «إنى رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصرى»**[1].

وحينما نزلت هذه السورة المباركة بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا...﴾ قال رجل من أصحاب رسول الله (ﷺ): **أى رسول الله أَوَ فتح هو؟**

قال (ﷺ): «إى، والذى نفس محمد بيده إنه لفتح».

وذلك لأن «صلح الحديبية» كان مناسبة تهيأت للمسلمين من أجل الاجتماع بعدد كبير من القبائل، ودعوتهم إلى الإسلام، وتبيان فضائل هذا الدين السماوى الخاتم، القائم على التوحيد الخالص لله الخالق (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة،

(١) رواه البخارى .

ولا ولد) وتنزيهه (سبحانه وتعالى) عن كل وصف لا يليق بجلاله، وعبادته (سبحانه) بما أمر، وطاعته بحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، وذلك بعمارتها وإقامة عدل الله فيها، كما تهيأ للمسلمين بهذا الصلح الفرصة لكشف تعصب مشركى قريش فى محاولتهم صد رسول الله (ﷺ) وجميع من أسلم معه عن المسجد الحرام على مدى ست سنوات متواصلة من تاريخ هجرته الشريفة إلى المدينة المنورة، وحتى يوم الحديبية، وتحريم الدخول إلى مكة المكرمة عليهم تعنتاً، واستفزازاً، ومخالفة للتقاليد المتبعة فى زمانهم، انطلاقاً من حميتهم الجاهلية، حتى فى الأشهر الحرم التى ما انفك العرب عن تعظيمها فى أزمنة جاهليتهم وشركهم بالله، وهنا اتضح لكل أهل الجزيرة العربية سماحة الإسلام ونبل أتباعه وتعنت الكفر وأهله فى جاهلية عمياء.

وفى السنة السادسة من الهجرة رأى رسول الله (ﷺ) فيما يرى النائم أنه يدخل الكعبة المشرفة ومعه جمع من المسلمين محلقين رءوسهم ومقصرين، لا يخافون.....، ورؤيا الأنبياء حق، فخرج مع هلال شهر ذى القعدة من نفس السنة معتمراً، لا يريد قتالاً مع المشركين وخرج (ﷺ) ، فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، واستنفر من حوله من أهل البادية ليخرجوا معه حتى وصل إلى موقع يعرف باسم «ثنية المرار» بركت فيه ناقته (ﷺ)، فقال الناس: خلأت الناقة (أى حرنت) فقال (ﷺ): «**ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**».

وفى رواية للبخارى جاء قوله (ﷺ): «**والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات اللّه تعالى إلا أعطيتهم إياها**»[1]، ثم واصل المصطفى (ﷺ) ومن معه المسير فى طريقهم حتى وصلوا إلى الحديبية، ولكن قريشاً أبت السماح لهم بدخول مكة عليهم، فبعث إليهم رسول اللّه (صلوات الله وسلامه عليه) عثمان بن عفان (رضى الله تبارك وتعالى عنه وأرضاه) برسالة منه أنه لا يريد قتالاً ولكن يريد أداء العمرة، فاعتقلته قريش بعد أن بلغ رسالة الرسول الكريم، وبعد أن قال له زعماء قريش: **إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل**، فرد عليهم سيدنا عثمان قائلا: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله (ﷺ)، وشاع أن عثمان بن عفان قد قتل، فقال المصطفى (ﷺ): «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»، ثم دعا الناس إلى البيعة تحت الشجرة فكانت البيعة التى عرفت باسم «بيعة الرضوان» ولكن جاء ما يؤكد أن إشاعة مقتل عثمان بن عفان باطلة، واصطلح المسلمون والمشركون على وضع الحرب، واشترطوا شروطاً لذلك فى وثيقة سميت باسم «وثيقة صلح الحديبية»، تنازل فيها رسول الله (ﷺ) بوحى من الله (سبحانه وتعالى) عن عدد من حقوقه حقناً لدماء الناس، ويقيناً بأن اللّه (تعالى) سوف يجعل من وراء هذا الصلح فتحاً قريباً، واشترط الصلح على أن من أراد الدخول فى حلف رسول اللّه (ﷺ) من قبائل العرب فهو آمن ومن أراد الدخول فى حلف قريش فهو آمن، فدخلت قبيلة خزاعة فى حلف المصطفى (عليه الصلاة والسلام)، ودخلت قبيلة بكر فى حلف مشركى قريش.

---

(١) رواه البخارى.

وعلى ذلك فإن «سورة الفتح» قد نزلت فى السنة السادسة من الهجرة، عقب صلح الحديبية مباشرة، ورسول اللّه (ﷺ) مع صحابته الكرام عائداً من الحديبية إلى المدينة المنورة، ولذلك تناولت هذه السورة الكريمة تفاصيل هذا الصلح بكل ملابساته. ويروى عن رسول اللّه (ﷺ) قوله صبيحة نزول هذه السورة المباركة: «نزل علىّ البارحة سورة هى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها: (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا) [1].

وتبدأ «سورة الفتح» بتوجيه الخطاب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) مطمئنة نفسه الشريفة على صدق ما ألهمه ربه (تبارك وتعالى)، وعلى حتمية تحقيقه فى أقرب وقت، وإن رأى جميع الحضور تقريباً خطورة ما قدَّموا من تنازلات لمشركى قريش، مع استفزازاتهم العديدة للمسلمين، ولكن اليقين الذى ملأ قلب المصطفى (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) بحتمية تحقيق وعد ربه جعله لا يستفز، رغم كل التجاوزات التى اقترفها مشركو قريش وكل الاشتراطات التى اشترطوها، وذلك انطلاقا من خطاب الله (تعالى) إلى خاتم أنبيائه ورسله (ﷺ) فى مطلع «سورة الفتح» بقوله (عز من قائل):

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

(الفتح:١ ـ ٣)

ثم تستمر الآيات فى تأكيد حقيقة أن اللّه (تعالى) هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً على إيمانهم،

---

(١) رواه البخارى، والنسائى، والترمذى.

فالإيمان يزيد وينقص، وأنه (سبحانه وتعالى) يبشر المؤمنين بالمغفرة والثواب، وبالعون بجنود من عنده (تبارك اسمه)، وأن لله جنود السماوات والأرض، وما يعلم جنود ربك إلا هو، وأنه (تعالى) هو العليم الحكيم، وأنه هو العزيز الحكيم.

وبعد ذلك تتحدث الآيات عن جزاء كل من المؤمنين والمؤمنات، وعما أعد الله لهم فى الآخرة، مؤكدة أن الله (تعالى) قد أنزل فى قلوب عباده المؤمنين الطمأنينة إلى الحق ليزدادوا إيماناً، وأن جزاء ذلك جنات النعيم، بعد التكفير عن سيئاتهم، بينما جزاء النفاق والشرك وسوء الظن بالله (تعالى)، هو صب غضبه (سبحانه وتعالى) ولعناته عليهم، ثم عذاب جهنم وساءت مصيراً.

ومرة أخرى تعاود السورة الكريمة توجيه الخطاب إلى النبى الخاتم، والرسول الخاتم (ﷺ) وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى) له:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ . (الفتح: ٨)

أى شاهداً على أمته وعلى الخلائق أجمعين، ومبشراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين، والمشركين، والمنافقين، وبعد ذلك مباشرة تنقل الآيات فى سورة الفتح الخطاب إلى المؤمنين بقول الحق (سبحانه وتعالى):

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ .
(الفتح:٩)

ويرجع الخطاب بسرعة مرة أخرى إلى رسول الله (ﷺ) ليشيد ببيعة الرضوان، ويبشر الموفين بها بعظيم الأجر من الله، ويحذر من نقضها؛ لأن الآيات تعتبرها بيعة لله (تعالى) الذى يقول فيها (عز من قائل):

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .
(الفتح:١٠)

وتنعى الآيات فى سورة الفتح بعد ذلك على المنافقين من الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول اللَّه (ﷺ) واعتذروا بأعذار كاذبة، ظنًّا منهم بأنه (ﷺ) لن يكون من المنتصرين، وعلى الرغم من ذلك فإنهم يطلبون منه (ﷺ) الاستغفار لهم، ويرجون نصيباً من الغنائم التى حققها، واللَّه خبير بما يعملون، وقد أعد نار جهنم للكافرين والمشركين والمنافقين الذين لا يؤمنون باللَّه ورسوله، وفى ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ . (الفتح: ١٤)

وتخاطب الآيات القرآنية الكريمة فى «سورة الفتح» هؤلاء المخلفين بأنهم سيدعون إلى الجهاد فى سبيل اللَّه مرة أخرى فإن تخلفوا فسوف يعذبهم اللَّه عذاباً أليماً؛ وذلك بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ . (الفتح: ١٦)

ثم تقرر الآيات أنه لا حرج على المعذورين إذا تخلفوا عن الجهاد فى سبيل اللَّه من أمثال كل من الأعمى، والأعرج، والمريض فتقول:

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ . (الفتح:١٧)

وبعد ذلك أثنت الآيات على المؤمنين من أهل بيعة الرضوان، مؤكدة أن اللَّه (تعالى) قد رضى عنهم، وأنزل السكينة على قلوبهم، وتجلى عليهم بالذود عنهم، وتثبيته إياهم، وبشرياته لهم بفتح قريب لمكة المكرمة، وبالفىء عليهم بمغانم كثيرة يأخذونها لأنه هو العزيز الحكيم، ومن هذه المغانم كف أيدى الكافرين عنهم، وجعل ذلك آية لهم، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم واللَّه (سبحانه وتعالى) على كل شىء قدير.

وتؤكد الآيات أن الكافرين لو قاتلوا المؤمنين فلن يجدوا لهم وليًا ولا نصيرًا، وهذه سنة من سنن اللَّه (تعالى) التى أجراها على الأمم من قبل، وسنن اللَّه (سبحانه وتعالى) لا تتبدل ولا تتغير أبداً إلا بإذنه، وقد تحققت بشريات اللَّه للمؤمنين فى سورة الفتح بدخولهم مكة المكرمة بعد ذلك بعامين دون قتال، وسيادة الإسلام للجزيرة العربية كلها بعد ذلك، وهيمنة هذا الدين الخاتم على الدين كله بأمر اللَّه وتدبيره، وهو تكريم من الله (تعالى) لرسوله الخاتم (ﷺ)، وللذين أسلموا معه واتبعوه على صراط مستقيم، وهو (سبحانه) البصير بأعمال العباد، المطلع على قلوبهم، والعارف بنواياهم، وهو فى نفس الوقت انتقام من مشركى قريش الذين صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام يوم الحديبية، أى قبل ذلك بعامين اثنين، وفى ذلك ينطق التنزيل بقول الحق (تبارك وتعالى) :

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. (الفتح: ٢٥، ٢٦)

والآيات تتحدث عن حمية الجاهلية التى دفعت كفار ومشركى قريش إلى منع رسول الله (ﷺ) ومن معه من المؤمنين من دخول مكة المكرمة لأداء العمرة، وغضب المؤمنون لذلك وثارت ثائرتهم لولا أن الله (تعالى) قد أنزل سكينته على رسوله (ﷺ) وعلى الذين آمنوا معه، وألزمهم كلمة التقوى.

وقد صدق الله رؤيا رسوله (ﷺ) فقال (عز من قائل):

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. (الفتح: ٢٧)

وتختتم سورة الفتح بالتأكيد على نبوة ورسالة خاتم الأنبياء والمرسلين (ﷺ) والتى أنكرها كثير من الكفار والمشركين والمنافقين عبر التاريخ، وسوف يظل الضالون من البشر ينكرونها إلى يوم الدين، ولكن يؤكدها الله (تعالى) بشهادة منه (سبحانه)، وبقوله (وهو أحكم القائلين):

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. (الفتح: ٢٨)

ويؤكد ربنا (تبارك وتعالى) شهادته الإلهية بأنه (سبحانه) قد أنزل صفة خاتم أنبيائه ورسله (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، وصفة الذين آمنوا معه فيما أنزل من كتب ومنها كل من التوراة والإنجيل فقال (عز من قائل):

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(الفتح: ٢٩)

وقد أثبت كثير من المنصفين ممن درسوا الترجمات المتوفرة لما يقال له التوراة (أو الكتب الخمسة) والإنجيل (أو الأناجيل الأربعة المقبولة لدى كنائس اليوم) وجود تلك الإشارات إلى الرسول الخاتم وصحبه الكرام على الرغم من تعرض تلك الكتب للكثير من التحريف أثناء ترجماتها عن أصولها القديمة وإن كانت هناك أصول فقد فقدت جميعها منذ أمد بعيد.

الثالث والثلاثون: فتح مكة:

احترم المسلمون نصوص صلح الحديبية، والتزموا بجميع بنوده، ولكن قريشاً نقضته بنصرها قبيلة بكر الموالية لها على قبيلة خزاعة الموالية لرسول الله (ﷺ) مما دعاه (ﷺ) إلى اتخاذ

قراره التاريخى بفتح مكة المكرمة، فتحرك جيش المسلمين فى حدود الثامن إلى العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة من المدينة المنورة قاصداً مكة المكرمة، وقد بلغ عدد جنوده عشرة آلاف مقاتل، وأمر رسول اللَّه (ﷺ) جنده ألا يقاتلوا أو يسفكوا دماً إلا إذا أكرهوا على ذلك إكراهاً، وذلك توقيراً لحرمة مكة المكرمة.

ودخل الرسول الخاتم مكة المكرمة ومعه لواء أبيض، وعلى رأسه الشريف عمامة سوداء، وهو راكب على ناقته القصواء، يقرأ سورة الفتح، خافض الرأس تواضعاً للَّه (تعالى) وشكراً له (سبحانه) أن فتح اللَّه عليه أم القرى، مهبط الوحى، وأرض البيت الحرام ليدخلها والمسلمون معه آمنين مطمئنين، لا يخافون، فطهروا البيت من الأصنام، وطافوا به، والرسول (ﷺ) يردد قوله الشريف: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده» ثم تلا الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. (الحجرات: ١٣)

دخل رسول الله (ﷺ) مكة المكرمة فى ليلة العشرين من رمضان سنة ثمان من الهجرة فاتحا فى عشرة آلاف مقاتل وأمر بتطهير البيت الحرام من الأصنام (٣٦٠ صنما) وتحطيمها، وبهدم جميع الأصنام التى كانت موجودة خارج الكعبة.

ومن الغريب أن يبقى فى سفر التثنية من العهد القديم (تثنية ٢:٣٢) إشارة إلى فتح مكة وذلك بما ترجمته: أتى الله من سيناء، وأشرق عليهم من سعير (وهى قرية قرب الخليل)، وتلألأ نوره من

جبل پاران (فاران أى مكة المكرمة) قادما فى آلاف من الصالحين.
[Thompson Chain- Reference Bible: New International Version: Indianapolis,Indiana and - Grand Rapids, Michigan, USA.,1983] .

وإن كانت الترجمة العربية للكتاب المقدس نشرة لبنان (١٩٨٥م) قد أغفلت الإشارة إلى جبل پاران (أى مكة المكرمة) عن عمد واضح كما أغفلت ذكر آلاف الصالحين الذين دخلوا معه مما يؤكد على التحريف الذى تعرضت له تلك الترجمات.

الرابع والثلاثون: حجة الوداع:

فى ٢٥ من ذى القعدة من العام العاشر للهجرة خرج رسول الله (ﷺ) لأداء فريضة الحج وعرفت هذه بحجة البلاغ، أو حجة الإسلام، أو حجة الوداع لأنه: (ﷺ) ودع المسلمين فيها بقوله : «**إنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا**» ولم يحج (ﷺ) بعدها، وبلغ الناس فيها شرع الله فى الحج قولا وعملا، وقد أنزل الله (تعالى) إلى رسوله (ﷺ) وهو واقف بعرفة قوله الحق:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . (المائدة: ٣)

وألقى رسول الله (ﷺ) خطبة الوداع الشهيرة والتى قال فيها:

«أيها الناس: اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا؛ ألا إن كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث ـ وكان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل ـ وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

أيها الناس: اتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله وسنتى.

أيها الناس: إنه لا نبى بعدى، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم وحجوا بيت ربكم، وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلوا جنة ربكم.

وأنتم سوف تسألون عنى فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت.

فقال (ﷺ) بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد» ثلاث مرات [١].

وبعد أن فرغ النبى (ﷺ) من إلقاء خطبة الوداع نزل عليه قوله (تعالى):

---

(١) صحيح مسلم، وابن ماجه .

﴿...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ...﴾ . (المائدة: ٣)

وعندما سمعها عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) بكى، فقيل له: ما يبكيك؟

فقال جملته الشهيرة: «إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان».

ثم أتم رسول الله (ﷺ) شعائر حجته، وخطب الناس فى يوم النحر بمنى فقال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، السنة إثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان»..

ومما قاله (ﷺ) فى هذا الموقف: «فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا... وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدى ضُلاًلا يضرب بعضكم رقاب بعض... ألا هل بلغت» قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع».

وكان مما قاله (ﷺ) فى تلك الخطبة أيضا ما نصه: «ألا لا يجنى جان إلا على نفسه، ألا لا يجنى جان على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى بلدكم هذا أبدا.. ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به»[1] .

الخامس والثلاثون: وفاته (ﷺ):

بعد عودته من حجة الوداع فى أوائل صفر سنة ١١هـ خرج رسول الله (ﷺ) إلى جبل أحد فصلى على الشهداء مودعا، ثم ألَمَّ

(١) الترمذى، وابن ماجه .

به المرض فخرج من منزله قاصدا البقيع فى منتصف الليل، مستصحبا خادمه «أبا مويهبة» الذى حدث بأن النبى (ﷺ) قال له : «**إنى أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع.. فانطلق معى**»، فلما وقف النبى (ﷺ) بين المقابر قال مخاطبا أهلها : «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى» وبشرهم (ﷺ) بقوله: «**إنا بكم للاحقون**» فلما استغفر لهم وآن له أن يئُوب، أقبل علىَّ قائلا : «**يا أبا مويهبة : إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها... ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة**». قال أبو مويهبة : بأبى أنت وأمى، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها... ثم الجنة، فقال (ﷺ) : «**لاوالله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى والجنة**».

وبدأ رسول الله (ﷺ) يشكو المرض غداة تلك الليلة التى زار فيها بقيع الغرقد، واستمر فى مرضه لمدة أسبوعين تقريباً، فاشتد خوف الناس عليه، ولم يتحرك جيش أسامة الذى كان رسول الله (ﷺ) قد أمر بتجهيزه لمقابلة الروم فى معركة فاصلة، وكان آخر بعث أمر به (ﷺ)، وكانت فيه إشارة للمسلمين أن يتجهوا بدعوتهم إلى خارج شبه الجزيرة العربية بعد أن دانت لهم بأكملها، خاصة وأن جيوش الروم كانت تحتل بلاد الشام فى الشمال، وكانت تهدد شبه الجزيرة العربية عبر تخومها الشمالية فى محاولة يائسة لوقف المد الإسلامى المتنامى فى كل الاتجاهات، وعلى الرغم من اشتداد المرض عليه (ﷺ) إلا أنه كان يخرج للصلاة بالناس فى مسجده عشرة أيام كاملة، أو أحد عشر يوما، وفى أحد هذه الأيام

اعتلى المنبر خطيبا فى المصلين قائلا : «...إن عبدا من عباد الله خيره الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده فاختار ما عند الله» فأدرك أبو بكر (رضى الله عنه) أن النبى (ﷺ) إنما يعنى بهذه العبارة نفسه الشريفة فأجهش بالبكاء قائلا: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا.

وروى البخارى عن الفضل بن العباس أنه قال : أتانى رسول الله (ﷺ) وهو يوعك وعكا شديدًا وقد عصب رأسه، فقال : «خذ بيدى يا فضل»، فأخذت بيده حتى قعد على المنبر، ثم قال (ﷺ): ناد فى الناس، فناديت : الصلاةُ جامعةً، فاجتمعوا، فقام رسول الله (ﷺ) خطيبا فحمد الله (تعالى) وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، أيها الناس: قد دنا منى خلوف من بين أظهركم، ولن أفى هذا المقام فيكم، وقد كنت أرى أن غيره غير مغن عنى حتى أقوم فيكم، ألا فمن كنت قد جلدت له ظهرا، فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه، ومن كنت قد شتمت له عرضا، فهذا عرضى فليستقد منه، ولايقولن قائل إنى أخاف الشحناء من رسول الله، ألا وإن الشحناء ليست من شأنى ولا من خلقى، وإن أحبكم إلى من أخذ حقا كان له علىَّ، أو حللنى منه فلقيت الله (عز وجل) وليس لأحد علىَّ مظلمة».

فقام رجل وقال : يا رسول الله ، لى عندك ثلاثة دراهم، فقال (عليه الصلاة والسلام) : «أما أنا فلا أكذب قائلا، ولا أستحلفه على يمين، فيم كانت لك عندى؟ قال : أما تذكر أنه مر بك سائل فأمرتنى فأعطيته ثلاثة، قال (عليه الصلاة والسلام) : «أعطه يا فضل» فأعطاه.

ثم عاد رسول الله (ﷺ) مستمرا فى مقالته الأولى وقال: «أيها الناس من عنده من الغلول شىء فليرده»، فقام رجل فقال: يا رسول الله: عندى ثلاثة دراهم غللتها فى الله، فقال (عليه الصلاة والسلام): «فلم غللتها؟» قال: كنت محتاجا إليها، قال (ﷺ): «خذها منه يا فضل».

وفى يوم الخميس السابق لوفاته (ﷺ) بأربعة أيام صلى رسول الله (ﷺ) بالناس صلاة المغرب فقرأ فيها بسورة المرسلات، ثم أوصى (ﷺ) بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، وأوصى بالاعتصام بالكتاب والسنة، وبتنفيذ جيش أسامة، وفى صلاة العشاء من ذلك اليوم لم يتمكن رسول الله (ﷺ) من الخروج للصلاة بالناس فأرسل إلى أبى بكر (رضى الله عنه) أن يصلى بالناس إمامًا فصلى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة فى الأيام الأخيرة من حياة رسول الله (ﷺ) نظرا لاشتداد المرض عليه وراجعت أم المؤمنين السيدة عائشة (رضى الله عنها) رسول الله (ﷺ) ثلاث أو أربع مرات كى يصرف الإمامة عن أبى بكر فأبى (ﷺ).

وقبل يومين من وفاته شعر رسول الله (ﷺ) بشىء من النشاط فخرج إلى مسجده لصلاة الظهر، وأبو بكر (رضى الله عنه) يصلى بالناس، فلما أدرك مجيئه (ﷺ) ذهب أبو بكر ليتأخر، فأومأ إليه (ﷺ) أن يبقى فى مكانه، وجلس إلى يسار أبى بكر فكان يقتدى بصلاة رسول الله (ﷺ)، ويسمع المصلين التكبير.

وقبل يوم واحد من وفاته (ﷺ) أعتق غلمانه، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب للمسلمين أسلحته.

وفى آخر يوم من حياته الشريفة فاجأ رسول الله (ﷺ) المسلمين فى مسجده وهم فى صلاة الفجر يصلون خلف أبى بكر

(رضى الله عنه) بكشف ستر حجـرة أم المؤمنين السيـدة عائشة (رضى الله عنها) فنظر إليهم وهم فى صفوف الصلاة مبتسما مودعا، فتراجع أبو بكر عن مقام الإمامة ظنا منه أن رسول الله (ﷺ) يريد الخروج للصلاة، وهمَّ المصلون أن يفتنوا فى صلاتهم فرحا برسول الله (ﷺ)، فأشار إليهم بيده الشريفة أن اثبتوا وأتموا صـلاتـكـم، ثـم دخـل الحجـرة وأرخـى الستر، ولما ارتـفـع الضحى، دعا رسول الله (ﷺ) ابنته السيدة فاطمة (رضى الله عنها) فسارَّها بشىء فبكت، ثم دعاها فسارَّها بشىء فضحكت، قالت أم المؤمنين السيدة عائشة (رضى الله عنها) :

فسـألناها عن ذلك فيما بعد فقالت : سارَّنى أنه (ﷺ) **يقبض فى وجعه الذى هو فيه، فبكيت لفراقه، ثم سارَّنى فأخبرنى أنى أول أهله يتبعه فضحكت.**

ودعا رسول الله (ﷺ) الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيرا، ودعا أزواجه أمهات المؤمنين فوعظهن وذكرهن، وأوصى من حوله بقوله الشريف: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**»، وكررها مرارا.

وبدأت لحظات الاحتضار فى بيت السيدة عائشة (رضى الله عنها) فأسندته إليها، ثم دخل أخوها عبد الرحمن بن أبى بكر وبيده سواك، فلاحظت أن رسول الله (ﷺ) ينظر إليه وعرفت أنه (ﷺ) يحب السواك، فقالت: **يا رسول الله آخذه لك؟** فأشار برأسه أى نعم، ثم قالت (رضى الله عنها): **فتناولته فاشتد عليه، فقلت: ألينه لك؟** فأشار برأسه أى نعم، فليّنته، فاستن به (ﷺ) كأحسن ما كان مستنا، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح به وجهه الشريف وهو يقول (ﷺ) : «**لاإله إلا الله... إن للموت سكرات**».

وماعدا أن فرغ (ﷺ) من السواك حتى رفع يده وأشار بإصبعه الشريف وشخص بصره إلى السقف وهو يقول: «**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين**»[1] ثم قال: «**اللهم اغفر لى وارحمنى، وألحقنى بالرفيق الأعلى**»[2] وكرر الجملة الأخيرة ثلاثا ولحق بالرفيق الأعلى وكان ذلك حين اشتد الضحى من يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ، (الموافقة لسنة ٦٣٢م). وقد تم له (ﷺ) ثلاث وستون سنة.

وشغل هول الفاجعة كل المسلمين فبقى جسده الطاهر على فراشه إلى صبيحة اليوم التالى حين قام كل من العباس وولديه الفضل وقثم، وكل من على بن أبى طالب وأسامة بن زيد وأوس بن خولى وشقران مولى رسول الله (ﷺ) بغسله من غير أن يجردوه من ثيابه، ثم كفنوه فى ثلاثة أثواب بيض، وقال أبو بكر (رضى الله عنه) إنى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**ماقبض نبى إلا دفن حيث يقبض**»[1]، فقام أبو طلحة (رضى الله عنه) برفع فراش رسول الله (ﷺ) الذى توفى عليه، فحفر تحته وجعل القبر لحدا أودع فيه جثمان خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، بعد أن صلى عليه المسلمون أرتالا أرتالا لا يؤمهم أحد بدءا بأهله وعشيرته من الرجال، ثم المهاجرون، ثم الأنصار ثم النساء فالصبيان، وأغلق القبر الشريف فى جوف ليلة الأربعاء، الرابع عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ (الموافق سنة ٦٣٢م) فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وجزاه الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

(١) رواه البخارى فى صحيحه.

(٢) متفق عليه.

خاتمة

عاش رسول الله (ﷺ) ثلاثة وستين عاما، أربعون منها قبل البعثة قضاها فى العبادة الفطرية والتحنث، وثلاثة وعشرين بعد البعثة قضاها فى الدعوة إلى دين الله وفى العمل الدءوب لإقامة دولة الإسلام، وفى الجهاد الصادق فى سبيل الله، وقد خاض فيها قرابة الثلاثين معركة والستين سرية وبعثة، وواجه خلالها من الحروب النفسية ما تراوح بين اتهامه (ﷺ) بالشعر والكهانة والسحر ومطاردة أتباعه وتعذيب بعضهم حتى الموت، وحصاره ومن آمن معه فى شعب بنى هاشم لثلاث سنوات كاملة حتى أكلوا ورق الشجر، ومحاولات قتله أو نفيه أو سجنه، ، إلى رمى بيته بحديث الإفك، إلى الغدر برسله كما حدث فى كل من سرية الرجيع، وسرية بئر معونة، إلى غدر اليهود ونقض عهودهم جميعها معه (ﷺ) فعاقبهم على ذلك بإخراجهم من الجزيرة العربية وأمر بتطهيرها من دنسهم وخبثهم ومؤامراتهم وأمره (ﷺ) مستمر إلى يوم الدين.

وبوفاته (ﷺ) انقطع وحى السماء، وختمت النبوات، واكتملت الرسالات، التى تجسدت كلها فى الرسالة الخاتمة المتمثلة فى القرآن الكريم وفى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) التى كمل بها الدين؛ وتمت نعمة رب العالمين على عباده المؤمنين بحفظ هذا الدين الخاتم فى كتابه الخاتم وفى سنة خاتم أنبيائه ورسله بنفس لغة الوحى (اللغة العربية) حتى يُمثل ذلك بقاء هذا الرسول الخاتم والنبى الخاتم قائما بين ظهرانى كل من الثقلين يعظهم بكتاب الله

وبالسنة الشريفة منذ لحظة بعثته (ﷺ) وإلى وقتنا الراهن، وحتى قيام الساعة، فلا يكون للناس حجة على الله بعد انقطاع الوحى، وانقضاء دور كل من الأنبياء والمرسلين، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وعلى جميع أنبياء الله ورسله وعلى من تبعهم بإحسان دون أدنى تحريف أو تبديل أو تغيير إلى أن يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وتبقى هذه السيرة العطرة لخاتمى الأنبياء والمرسلين (ﷺ) تجسيدا للنبوة فى أعلى مراتبها، وللإنسانية فى أرقى صورها، وللكمال البشرى فى تمامه وتساميه، فيجد فيها كل عاقل من المسلمين النموذج الأمثل لتحقيق رسالته فى هذه الحياة الدنيا بنجاح، والفوز بمرضاة الله فى الدنيا والآخرة، وذلك بالفهم الصحيح لدين الله، والتطبيق الدقيق لأوامره، والتأسى الأمين بسنة خاتم أنبيائه ورسله حتى يستطيع القيام بأداء العبادة لله (تعالى) بما أمره، وبحسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض، وإقامة عدل الله فيها، والجهاد الصادق من أجل تحقيق ذلك حتى يلقى الله (سبحانه وتعالى) كما فعل خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

قائمة بالمراجع

* إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة، للدكتور: حسين كمال الدين ـ مجلة البحوث الإسلامية ـ المجلد الأول، العدد الثانى (١٣٩٥/ ١٣٩٦هـ) ص ٧٣١ ـ ص ٧٨٠ .
* الأصنام: ابن الكلبى.
* السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، أحمد مهدى رزق الله: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
* الرحيق المختوم، المباركفورى، صفى الرحمن: ـ دائرة الذخائر.
* إتحاف الورى بأخبار أم القرى: عمر بن فهد بن محمد، تحقيق وتقديم: فهيم محمد شلتوت. مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى.
* أخبار مكة المكرمة فى قديم الدهر وحديثه: أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهى ـ دراسة وتحقيق عبد الملك بن عبد الله ابن دهيش، ط الأولى عام ١٤٠٧م.
* أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار : محمد بن عبد الله الأزرقى. ط الرابعة مطابع دار الثقافة بمكة المكرمة.
* إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى : أحمد بن محمد القسطلانى. ط السادسة، المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٤٠٣هـ
* أسباب النزول للواحدى ط الثانية ١٤٨٧هـ، الحلبى.
* أسد الغابة فى معرفة الصحابة: ابن الأثير. دار إحياء التراث، العربى ـ بيروت.
* الإصابة فى تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلانى. ط الأولى سنة ١٣٢٨، مطبعة السعادة بمصر.
* أعلام النبوة: على بن محمد الماوردى ط الأولى ١٣٩٣هـ، بيروت دار الكتب العلمية.
* إمتاع الأسماع للمقريزى، صححه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر ١٩٤١م.

* أمالي المرتضى: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط الأولى ١٣٧٣هـ دار إحياء الكتب العربية.
* إنجيل برنابا: تحقيق سيف الله أحمد فاضل. دار القلم بالكويت ط٢ عام ١٤٠٣هـ وملحق به (دراسات حول وحدة الدين عند موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام).
* أيام العرب فى الجاهلية . محمد أحمد جاد، على البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط الثانية ١٣٧٢هـ مصر.
* الأعلام: خير الدين الزركلى ط الرابعة عام ١٩٧٩م.
* الاشتقاق: لابن دريد. تحقيق عبد السلام محمد هارون. الخانجى بمصر.
* الملل والنحل: الشهرستانى.
* بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب: محمود شكرى الألوسى عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمد بهجة الأثرى. دار الكتب العلمية.
* البداية والنهاية: لابن كثير.
* تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك): محمد بن جرير الطبرى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط الرابعة. دار المعارف بمصر.
* تاريخ العرب فى الإسلام (السيرة النبوية): الدكتور جواد على. مكتبة النهضة العربية ـ بغداد ـ ط الأولى ١٩٨٣م
* تاريخ العرب فى عصر الجاهلية: للدكتور السيد عبد العزيز سالم. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧١م.
* تاريخ الأدب العربى: د. ر. بلاشير، ترجمة د. إبراهيم الكيلانى. ط الثانية دار الفكر ١٤٠٤هـ.
* تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس: حسين محمد الديار بكرى. مؤسسة شعبان. بيروت.
* التبيين فى أنساب القرشيين: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسى. تحقيق محمد نايف الديلمى. المجمع العلمى العراقى ١٤٠٢هـ.
* تلخيص المستدرك: للذهبى بهامش المستدرك.
* جامع الترمذى: تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة، ط الثانية ١٣٩٥هـ

* جامع البيان عن تأويل آى القرآن: لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى. البابى الحلبى، ط الثانية ١٣٧٣هـ
* حذف من نسب قريش: مؤرج بن عمرو السدوسى، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط الثالثة ١٣٨٨هـ
* خاتم النبيين (ﷺ): محمد أبو زهرة، دولة قطر.
* خزانة الأدب: عبد القادر البغدادى، تحقيق عبد السلام محمد هارون ط الثانية ١٩٧٩م الخانجي.
* الدر المنثور فى التفسير بالمأثور: للسيوطى دار الفكر، ط الأولى ١٤٠٣هـ
* دلائل النبوة، للبيهقى: دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ
* دلائل النبوة: لأبى نعيم، عالم الكتب.
* الروض الآنف: السهيلى، دار المعرفة بيروت ١٣٩٨هـ
* روح المعانى: للألوسى، المنيرية.
* زاد المعاد فى هدى خير العباد: لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ط الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ
* سيرة النبى (ﷺ) (سيرة ابن هشام): تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.
* سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد: محمد يوسف الصالحى، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، القاهرة ١٣٩٢هـ.
* شرح المواهب اللدنية: للزرقانى.
* صحيح البخارى: دار ومطابع الشعب.
* صحيح مسلم: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى.
* ضياء السالك إلى أوضح المسالك، محمد عبد العزيز النجار، ط الثانية ١٣٩٣هـ، مطبعة السعادة.
* الطبقات الكبرى: محمد بن سعد، دار صادر، بيروت.
* الفصل: لابن حزم، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٥هـ
* فتح البارى بشرح صحيح البخارى: للحافظ ابن حجر العسقلانى، المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٨٠هـ
* فضائل مكة والسكن فيها: للحسن البصرى (٢١هـ - ١١٠هـ) - تحقيق الدكتور سامى مكى العانى، مكتبة الفلاح - الكويت ص ١ - ص ٤٢.

* القاموس المحيط: الفيروز آبادى، مؤسسة الرسالة.
* قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد (ﷺ): د. محمد جمال الدين سرور، دار الفكر العربى بمصر ١٣٩٨هـ/ ١٤٠٦هـ.
* الكامل فى التاريخ: لابن الأثير، دار الكتاب العربى بيروت ١٤٠٠هـ.
* كشف الأستار عن زوائد البزار: نور الدين على بن أبى بكر، تحقيق. حبيب الرحمن الأعظمى، مؤسسة الرسالة ط الأولى ١٣٩٩هـ
* الكتاب المقدس، جمعيات الكتاب المقدس فى الشرق الأدنى ١٩٧٦م.
* لباب النقول فى أسباب النزول: للسيوطى، مصطفى البابى الحلبى، ط الثانية.
* لسان العرب: لابن منظور: دار صادر، بيروت ١٣٨٨هـ.
* المستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابورى.
* موسوعة المستشرقين، للدكتور عبد الرحمن بدوى، دار العلم للملايين، بيروت، ط الثانية ١٩٨٩م.
* مصنف عبد الرزاق الصنعانى: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى، المكتب الإسلامى، ط الثانية ١٤٠٣هـ.
* مصنف بن أبى شيبة: تحقيق. مختار أحمد الندوى، ط الأولى ١٤٠٣هـ.
* المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: للدكتور جواد على، دار العلم للملايين، ط الثالثة ١٩٨٠م.
* المعجم الكبير، للطبرانى: تحقيق وتخريج: حمدى عبد المجيد السلفى.
* مسند الإمام أحمد: تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر.
* مسند الإمام أحمد: نشر المكتب الإسلامى.
* مسند أبى داود الطيالسى: دار المعرفة، بيروت.
* المنمق فى أخبار قريش: محمد بن حبيب، دار المعارف بالهند ١٣٨٤هـ.
* المحبر: محمد بن حبيب، تحقيق الدكتورة: إيلزة ليخت شتير، دار الآفاق الجديدة، بيروت.:
* معجم ما استعجم للبكرى، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب.
* مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للهيثمى، مؤسسة المعارف ـ بيروت.

* مسند أبى يعلى الموصلى: تحقيق إرشاد الحق الأثرى، دار القبلة، ط الأولى ١٤٠٨هـ
* مختصر سيرة الرسول (ﷺ): للشيخ محمد بن عبد الوهاب.
* المرشد إلى الكتاب المقدس، القس سيكل سيل، مكتبة المشعل الإنجيلية، بيروت ١٩٥٨هـ
* محمد فى الكتاب المقدس: عبد الأحد داود، ترجمة: فهمى شما، مراجعة وتعليق: أحمد محمد الصديق، دار الضياء، ط الثانية ١٤٠٥هـ
* المنجد: لويس معلوف، ط الثالثة عشرة ١٩٥٢م.
* معانى القرآن وإعرابه، للزجاج: تحقيق الدكتور عبد الجليل شلبى، المكتبة العصرية، بيروت.
* أنساب قريش للزبيرى: تحقيق أ. ليفى بروفنسال، ط الثالثة، دار المعارف.
* نسب الأشراف للبلاذرى: تحقيق د. محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر.
* نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب: لابن سعيد الأندلسى، تحقيق الدكتور نصر عبد الرحمن مكتبة الأقصى ـ الأردن.
* نوادر المخطوطات: تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط الثانية ١٣٩٢هـ، وضمنها (حديقة البلاغة ودوحة البراعة المورقة أفنانها المثمرة أغصانها بذكر المآثر العربية ونشر المفاخر الإسلامية والرد على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم الأعجمية. من صفحة ٣٠٧ إلى ٣٣٠ من الجزء الأول).
* نهاية الأرب فى فنون الأدب، للنويرى.
* النهاية فى غريب الحديث والأثر: لابن الأثير، تحقيق الدكتور محمود الطناحى، وطاهر الزاوى، المكتبة الإسلامية. ط الخانجى.
* المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقى.

- Robinson, James M. (General Editior): The Nag Hammadi Library In English, Third, Completely Revised Edition; E.J. Brill, Leiden, New York, Kobenhaven, Koln (1988) PP. XV + 1 - S79.
- Thompson Chain - Reference Bible, New Internatioal Version: Indianapolis, Indiana, and Grand Rapids, Michigan, USA (1983).

قائمة بموضوعات الكتاب